

Looloo
www.dvd4arab.com



ترجمها عن الهيروغليفية

العالم الأثرى :

أحمد عبد الحميد يوسف

هــذه المحاكمة

عرف الإنسان الغدر والغيلة منذ خلق ، وإنا لننظر فى مرآة التاريخ فنطــالع صـــورا للاثم والبغى تتردد اخبارها فى اسماع الزمان وتتجاوب اصداؤها فى ضمير التاريخ . وتمر الأزمان وتتتابع الدهور ولكن الإنسان لم يرق فى دخيلة نفسه ولم يهذب من غرائزه ، فان كان قد هذب فى شىء او رقى شيئا فانما هذب ورقى وسيلة قتل اخيه ان تكون ســهلة ميسرة سريعة الآثار مضـــمونة النتائج !

ولقد عرفت مصر الاغتيال السياسى منـــذ اقدم العصور ، ولم تعدم فى تاريخها القديم والحديث آثمـــا تخلت عنه المروءة فراح يعتدى ذلك الاعتداء المنكر الآثم على حياة اولى الأمر منه .. فلقد تعرض بعض الفراعنة من حكام هذا الوادى للغيلة والغدر ، والعجيب ان من تعرض منهم لهذا اللون من خيانة الإنسان إنما كان من اصلح الفراعين حكما ، واعدلهم سيرة ، واحرصهم على رفاهية مصر ، واشدهم غيرة على امنهـــا ، واكثرهم استعدادا لبذل نفسه فى سبيلها !

ولقد ادخر لنا التاريخ قصة مؤامرة كبرى وجريمة ضج لها الناس فى ذلك الزمـــان ، ومحاكمـــة تعتبر من المحاكمات الكبرى فى التاريخ . وشاءت الأقدار ان تدخر لنا محاضر جلساتها كاملة او كالكاملة فى اوراق البردى التى انتقلت إلى متاحف اوربا .

حاكم مثالى

كان ذلك حوالى سنة ١١٦٧ قبل مولد المسيح ، يوم كان على عرش مصر فرعونها رع مس سو (رمسيس) الثالث ، وكان ملكا جديرا بعرش الرعامسة العظام ، هيأت له الأيام أن يكون بطلا مغمورا ومحاربا فذا .. فقد باتت مصر فى ذلك الأوان والخطر محدق بها من كل مكان ، فهى قـــد تعرضت لكثير من حملات الغزو وجيوش العدوان من الطامعين ، ولكن ملوكهـــا تنبهوا لما يحيط بها من خطر وما قد يحيق بها من وراء الهزيمة إذا ما حلت بالجيش الهزيمة والمـــكروه .. وهى لم تتعرض لخطر واحد ولكنها تعرضت لطوائف كثيرة من الطامعين ، من كثير من الأجناس : فمنهم من اقبل عليها غازيا من البحـــر ، ومنهم من جاءها من الغرب ، ومنهم من وفد عليها من الشرق .. وشاء الله أن يهيىء لمصر من ابنائهـــا ملكا وقف كالطـــود الراسخ فكبهم على وجوههم واوقع بهم الخسران ، اما الذين اقبلوا من البحر فقد تصدى لهم الأسطول المصرى فى معركة هائلة فقتل جنودهم واغرق سفنهم حتى سد بها مصب النيل !

ولم تكن حروب رمسيس الثـــالث وشجاعته فى جهـــاد الأعداء الطامعين موضع فخره فحسب ، بل لقد كان له ان يفخر بما أوتى من نشاط واسع وحرص على رفاهية شـــعبه ورفع مستواه ، فكان ان بذل عنايته فى سبيل انماء موارد مصر الزراعية والتجارية والمعدنية جميعا ، وذلك فضلا عما انشا فيها من معالم العمران ..

ووجد الأجانب فى مصر على عهده الأمن والراحة وخفض

العيش ، فاقبلوا على خدمتها ودخلوا جيش مصر جنودا مرتزقين ، ومنهم من ارتفع حظه فدخل فى بلاط الملك وصار من خاصته !

اما قصر الفرعون او قصوره فقد كانت آية فى الروعة والفخامة ، وكان فى حياته يحيا حياة الفرسان : شجاعة وقتالا فى الحرب ، ثم شرابا ولهوا وصحبة نساء فى السلم ! .. لذلك فقد كان قصره حافلا بالنساء من ازواجه وحريمه ، وكان كذلك كثير الأولاد والبنين. ولعله كان يؤثر ولده رمسيس (الرابع) بالحب ويحيطه بالرعاية ، فولاه عهده من بعده ، ولكن ذلك كان كفيلا بأن يحفظ سائر نسائه منه ويوغر صدورهن عليه !

الغيرة هى الدافع !

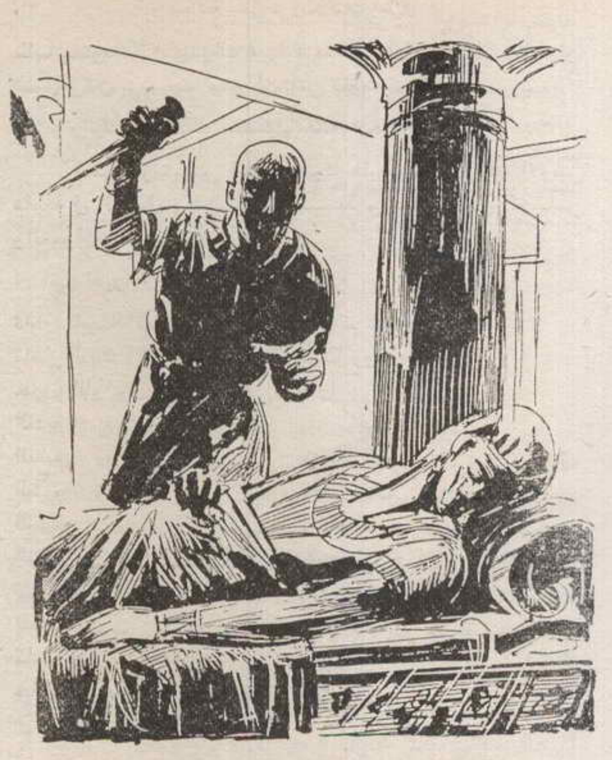
وكان للملك ولد آخر يقال له « بنتاؤر » من زوج اخرى تسمى « تى » لعلها رات ما يؤثر به ضرتها وابنها من الحب والرعاية ، وما يغمرها به من العطف والبر ، وما تجده منه من الاعراض والإهمال .. مما اشعل فى صدرها نار الغيرة واجج فى قلبها سعير الكراهية والحقد على الملك وابنه الاثير !

وكانت « تى » تود لو عهد إلى ولدها بالعرش من دون اخيه من ضرتها . وكانت فيما يبدو احرص نسائه واشدهن غيرة وطمعا واعظمهن جراة — وربما كانت قوانين البلاد لا تسمح بذلك التغيير والتبديل فى وراثة العرش — فلم تجد إذن من سبيل لتولية ابنها العرش إلا باحداث إنقلاب فى البلاد

واغتيال الملك مع إثارة الشعب وإضرام الفتنة فى البلاد ! .. فكان أن طفقت تدبر المؤامرة وتحبك أطرافها ، فاذا بها تعهد بذلك إلى طائفة من رجال القصر من حاشية الملك وبعض النساء من حريمه ! وكان على رأس التدبير رجلان من المقربين إلى الملك وهما «باى بك أمون» كبير الأمناء و « مسد سو رع » من ندمائه . وطفق «باى بك أمون» يجمع من حوله من يصلح لإنفاذ ذلك التدبير ، فاذا به يستعين بعشرة من موظفى جناح الحريم من مختلف الرتب ، وأربعة من ندامى الملك ، وناظر المالية ، وقائد سلاح الرماة فى النوبة — المدعو « بين م واست » — وكانت لذلك القائد أخت فى حريم الملك من المتآمرين كتبت إليه تحضه على الثورة ضد الملك واشعال الفتنة فى الشعب .. وانضم إليهم كذلك « بايس » وهو جنرال من قادة الجيش ، وثلاثة من كتاب الديوان الملكى من مختلف الادارات .. وذلك فضلا عن مساعد « باى بك أمون » وعدد من الموظفين الصغار !

وتولت ايصال الرسائل والمكاتبات ست نساء من ازواج ضباط حرس الحريم، وذلك فضلا عمن اشترك خارج القصر من أقارب المتآمرين المتغلغلين فى الشعب ..

ومن المحقق أن التدبير كان دقيقا محكما ، فان المقربين من الملك فى القصر أخذوا على عاتقهم الإجهاز عليه بالقتل ، مع إعلان بنتاؤر ملكا بطبيعة الحال ، على أن تصاحب ذلك الانقلاب ثورة شعبية يتولاها بعض قادة الجيش فى انحاء البلاد !



ثم كان أن بدأ تنفيذ مؤامرة الانقلاب ، فاعتدى المتآمرون على الملك فاصابوه اصابة كادت تقضى عليه ..

المتآمرون يستخدمون « السحر » !

وتروى لنا وثائق هـذا المؤامرة ان « باى بك أمون » استخدم فضلا عن ذلك سلاح « السحر » ، حتى يشل اعضاء الحرس وانصار الملك فى القصر فيعمى بصيرتهم عن كشف ذلك التدبير .. فكان أن استعان بناظر قطعان الملك ، وكان رجلا يجيد فنون السحر ، فأمده بشمع سحرى وبردية من « آثار » الملك .. فصنع منها مع أعوانه تماثيل للآلهة وللذين يريدون انزال الضرر بهم ونقشوها بأسمائهم ثم بثوها فى انحاء القصر !

ثم كان ان بدأ تنفيذ مؤامرة الانقلاب ، فاعتدى المتآمرون على الملك فأصابوه إصابة كادت تقضى عليه . وكاد يقدر لهم النجاح لولا أن انكشف تدبيرهم فانفضحت المؤامرة فى آخر لحظة ، وانكشفت تفاصيل الانقلاب واتضحت الأدلة الدامغة على خيانتهم، فقبض عليهم جميعا وعلى من ثبت علمه بالمؤامرة دون أن يبلغ عنها .. ثم عزلوا من وظائفهم تمهيدا للمحاكمة .

وكان أن أصدر الملك وهو على فراش الموت ــ يحتضر من أثر الإصابة ــ أمرا بتشكيل محكمة خاصة لمحاكمتهم على جريمة عقوبتها الاعدام . ومنح قضاة هذه المحكمة الخاصة سلطات واسعة فى المحاكمة وتوقيع العقاب . وأكبر الظن أن المتهمين اعترفوا اعترافات كاملة بخيانتهم ، نحس ذلك من كلام الملك نفسه فى نص الأمر حين فضل أن يتركوا لأنفسهم فيوقعوا بها العقاب بالانتحار ! ولكنه مع ذلك حض القضاة على تحرى الحق والحرص على العدل حتى لا يؤخذ برىء

ظلما بعقوبة لا استدراك فيها ، فقد كان مقدرا أن أيامه لن تطول وكان يريد فيما يبدو أن يلقى الموت مرتاح الضمير ..

واليك أمر الملك بتشكيل هذه المحكمة :

« نحن رمسيس الثالث سيد هليوبوليس وملك الأرض قاطبة فى الشمال والجنوب وسيد ما عليها من الناس والحيوان ..

انى اعين :

ناظر البيت الأبيض	منتو م تاوى
ناظر البيت الأبيض	بايف رواى
حامل اللواء	كارا
النديم	باى باسا
النديم	كدنانا
النديم	ماهر بعل
النديم	با اير نو
النديم	حجوتى رخ نفر
تشريفاتى الملك	بن رنوت
الكاتب	ماى
كاتب إدارة المحفوظات	بارام حب
حامل لواء سلاح المشاة	حورى

« أقول :

« إنه نظرا لما يشيع بين الناس من أقوال لا نعرفها فقد كلفناكم بالذهاب لتحقيقها ، وعند ذهابكم لتحقيقها فان

عليكم أن تأمروا بأن يعدم نفسه كل من يستحق الاعدام بدون ان يرفع ذلك إلى علمى . وعليكم أن تنزلوا العقاب بسائر المذنبين من غير رفعه الينا كذلك . وعند قيامكم بهذه المهمة عليكم ان تبذلوا الدقة والعناية حتى لا توقعوا العقاب ظلما بمن لا يستحق العقاب !.. اننى اتحدث اليكم بالحق الأكيد فيما يتعلق بكل الذى حدث وهؤلاء الذين أحدثوه ، فلتقع تبعة كل ما عملوا على رءوسهم، وذلك حين أكون فى ظل الحماية والأمن إلى الأبد ، حينما اكون بين الصديقين من الملوك فى حضرة أمون رع ملك الآلهة وفى حضرة أوزيريس سيد الأبدية » .

سلاح المراة

وطفقت هيئة المحكمة تحقق الجرائم وتستجوب المتهمين .. غير ان بعضهم ــ بعد الجلسة الأولى ــ حاول التأثير فى المحكمة وصرفها عن واجبها بشتى وسائل الاغراء الدنىء ، فقد عمدت طائفة من النساء المتهمات إلى اغراء اثنين من الضباط المسئولين عن التحفظ عليهن فى المعتقل ، وإلى اغراء بعض قضاة المحكمة ــ وهما النديم « باى بى » والكاتب « ماى » ــ ومال الرجال إلى الاغراء فاذا بهم يستقبلون النساء فى بيوتهم مع الجنرال بايسى ، وينفقون معهن وقتا فى الشراب والمجون !

وتفتضح هذه الرشوة الدنيئة المنكرة ، ويقبض على الرجال وعلى حامل اللواء « حورى » .. وكان أن قدموا إلى المحاكمة ــ بعد ذلك ــ حيث انزل بهم العقاب الرادع « بجدع

الأنف وقطع الأذن ! » اما حورى فقد طـرد دون أن ينزل به عقاب . .

واستمرت المحكمة فى تحقيق المؤامرة ، فحددت أنواع التهم وقبضت على كثيرين ممن علموا بها ولم يبلغوا عنها . . واصدرت عليهم الأحكام وانزلت بهم العقاب ، وهو الاعدام ، ولكن منهم من فضل أعدام نفسه بنفسه !

وإليك ترجمة محاضر الجلسات ونصـوص الأحـكام كما وردت فى أوراق البردى :

المحاكمة الأولى

« الأشخاص الذين جىء بهم (أى قبض عليهم) بسبب جرائمهم التى ارتكبوها ، ومثلوا لمحاكمتهم أمام المحكمة المشكلة من هؤلاء النبلاء العظام : ناظر البيت الأبيض « منتوم تاوى » ، ناظر البيت الأبيض « بايف راوى » ، حامل اللواء « كارا » ، النديم « باى باسا » ، كاتب إدارة المحفوظات « ماى » ، حامل اللواء « حورى » .

وقـد حاكموهم ووجدوا انهم مذنبون فحكمـوا عليهم بالعقاب فأخذوا بجرائمهم وهم :

١ ـ المجرم الأثيم «باى بك أمون» ناظر القصر السابق: قبض عليه لاشتراكه مع « تى » ونساء الحريم بأن دبر مؤامرة معهن وحرضوا امهاتهم واخواتهم الذين كانوا ينادون « اشعلوا الثورة فى الناس وحرضـوا الأعداء على اثارة الفتنة ضـد

مليكهم » . وقد جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام وقرروا أنه قد ارتكب تلك الجرائم فأخذ بجرمه وانزل النبلاء الذين حاكموه العقوبة به .

٢ ـ المذنب الأثيم « مسد سو رع » النديم السابق : قبض عليه لاشتراكه مع «باى بك أمون» ناظر القصر السابق ومع الحريم لإثارة الأعداء للقيام بفتنة ضـد مليكه . وقد مثل أمام نبلاء المحكمة العظـام فحققوا جرائمه وقرروا أنه مذنب فانزلوا به العقاب .

٣ ـ المذنب الأثيم « باى اينوك » ناظر جناح الحريم الملكى ، ومن الحاشية : قبض عليه لتآمره مع « باى بك أمون » و « مسد سو رع » لارتكاب أعمال عدائية ضد مليكهما . جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه وقرروا أنه مذنب وانزلوا به العقاب . .

٤ ـ المذنب الأثيم « بندواو » الذى كان كاتب محفوظات الحريم الملكى ومن الحاشية : قبض عليه لاشتراكه مع « باى بك أمون » « ومسد سو رع » المجرم الآخر ، ونساء الحريم . . وذلك للقيام بمؤامرة معهم لاتيان أعمال عدائية ضـد الملك . جىء به أمام نبلاء المحكمة فحققوا جرائمه ووجدوا أنه مذنب فانزلوا به العقاب .

٥ ـ المذنب الأثيم « باتاو مـدى أمون » ، الذى كان مفتشا فى جناح الحريم ، ومن الحاشية : قبض عليه لسماعه بما اتفق عليه نساء الحريم ، مع عدم التبليغ عن ذلك .

جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وأنزلوا به العقاب .

٦ — المذنب الأثيم « كارابوسا » الذى كان مفتشا فى « جناح » الحريم ومن الحاشية : قبض عليه بسبب الأحاديث التى سمع بها واخفاها .. جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

٧ — المذنب الأثيم « خع م ايبت » الذى كان مفتشا فى الحريم ومن الحاشية : قبض عليه بسبب الأحاديث التى سمع بها وأخفاها .

جىء به امام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

٨ — المذنب الأثيم « خع م مآن رع » الذى كان مفتشا فى الحريم : قبض عليه بسبب الأحاديث التى سمع بها واخفاها .

جىء به امام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

٩ — المذنب الأثيم « سيتى م برجحوتى » الذى كان مفتشا فى الحريم ومن الحاشية : قبض عليه بسبب الأحاديث التى سمعها واخفاها .

جىء به امام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

١٠ — المذنب الأثيم « ستى م بر أمون » : قبض عليه بسبب الأحاديث التى سمعها واخفاها .

جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا أنه مذنب وانزلوا به العقاب .

١١ — المذنب الأثيم « ورانا » الذى كان نديما : قبض عليه بسبب الاحاديث التى سمعها من رئيس الجناح الملكى وعند انسحابه من عنده أخفاها ولم يقم بتبليغها .

جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

١٢ — المذنب الأثيم « عشا حب سد » الذى كان مساعد « الباى بك أمون » : قبض عليه لسماعه كلام « باى بك أمون » فلما تركه لم يقم بتبليغ ذلك !

جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

١٣ — المذنب الأثيم « باروكا » الذى كان نديما وكاتبا فى البيت الأبيض : قبض عليه لاشتراكه مع باى بك أمون وذلك باستماعه لكلامه وعدم تبليغه !

جىء به أمام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

١٤ — المجرم الأثيم الليبى الجنسية « أنينى » — نديم سابق : قبض عليه لاشتراكه مع « باى بك أمون » باستماعه لكلامه مع عدم تبليغه عنه !

جيء به امام نبلاء المحكمة العظام فحققوا جرائمه فوجدوا انه مذنب وانزلوا به العقاب .

١٥ــ زوجات رجال حرس الحريم اللاتى اشتركن مع هؤلاء الرجال فى تدبير هذه الجرائم واللاتى جيء بهن امام نبلاء المحكمة فقرروا انهن مذنبات وانزلوا بهن العقاب (ست نساء)

١٦ــ المذنب الاثيم « باى ايرى بن روما » الذى كان ناظرا فى البيت الأبيض ، قبض عليه لاشتراكه مع المجرم الأثيم « بين حوى بين » فى التآمر معه على إثارة الأعداء لإحداث فتنة ضد مليكهم .

جيء به أمام نبلاء المحكمة فوجدوا أنه مذنب وانزلوا به العقاب .

١٧ــ المذنب الاثيم « بين م واست » الذى كان قائد سلاح الرماة فى النوبة : قبض عليه بسبب الرسالة التى كتبتها إليه أخته وهى احدى نساء الحريم تقول فيها : « حرض الناس على الفتنة واقبل لبدء الثورة ضد مليكك » .

وقد جيء به أمام «كدنا» و «ماهر بعل» و «با ايرسون» و « جحوتى رخ نفر » فحققوا معه فوجدوا أنه مذنب وانزلوا به العقاب .

ويبدو فى هذا الحكم الاخير ان ذلك الضابط وهو قائد سلاح الرماة قد عقدت له محكمة فرعية ذات صبغة عسكرية

فى اكبر الظن ــ فان من أعضائها « ماهر بعل » و « كدنا » وهما اجنبيان لعلهما من الضباط المرتزقة الذين كثروا فى مصر فى تلك الأيام .

المحاكمة الثانية

وهذا نصها :

الأشخاص الذين قبض عليهم لاشتراكهم مع « باى بك أمون » و « بايس » و « بنتاؤر » جيء بهم امام نبلاء المحكمة فوجدوا أنهم مذنبون .. فلما تركوا بمفردهم فى المحكمة انتحروا بانفسهم قبل ان توقع عليهم عقوبة !

١ ــ المجرم الأثيم « بايس » الذى كان قائدا فى الجيش .

٢ ــ المجرم الأثيم «مس سوى» الذى كان كاتبا فى دار الكتب المقدسة .

٣ ــ المجرم الأثيم « بارع كامنف » الذى كان رئيسا .

٤ ــ المجرم الأثيم « اى راى » الذى كان ناظر معبد سنحمت .

٥ ــ المجرم الأثيم « نب جفاو » نديم سابق .

٦ ــ المجرم الأثيم « شد مسجر » كاتب سابق فى دار الكتب المقدسة .

المجموع ستة

المحاكمة الثالثة

وهذا نصها :

الأشخاص الذين جيء بهم بسبب جرائمهم إلى المحكمة المشكلة من : « كدنا وماهر بعل ، وبا ايرسون ، وجحوتى رخ نفر ، ومرتى أوسن أمون » .. وقد حققوا معهم فى جرائمهم ووجدوهم مذنبين فتركوهم فى أماكنهم .. فانتحروا بأيديهم ! .. وهم :

١ — « بنتاؤر » الذى يحمل هذا الاسم : قبض عليه لاشتراكه مع أمه « تى » التى تآمرت مع نساء الحريم ضد مليكه .

جيء به أمام الندماء فوجدوا انه مذنب فتركوه فى مكانه فانتحر بنفسه !

٢ — المجرم الأثيم « هان اوتن أمون » النديم السابق : قبض عليه بسبب جرائم نساء الحريم التى سمع بها ولم يبلغ عنها ..

جيء به أمام الندماء للتحقيق معه فقرروا أنه مذنب .. فترك فى مكانه فانتحر !

٣ — المجرم الأثيم « أمون خعو » ، وكيل سابق لجناح الحريم ومن الحاشية : قبض عليه بسبب جرائم نساء الحريم ، وذلك انه كان بينهن فسمع ذلك منهن ولم يقم بتبليغه !

جيء به أمام الندماء لمحاكمته ، فوجدوا أنه مذنب .. فترك فى مكانه ، فانتحر بنفسه .

٤ — المجرم الأثيم « بيرى » ، كاتب سابق للملك فى الحريم ومن الحاشية : قبض عليه بسبب جرائم نساء الحريم، وذلك انه كان بينهن فسمع بها ولم يقم بتبليغها ..

وجيء به أمام الندماء لمحاكمته ، فوجدوا أنه مذنب .. فترك فى مكانه ، فانتحر !

المحاكمة الرابعة

الأشخاص الذين نفذت فيهم العقوبات بجدع انوفهم وقطع آذانهم .. وذلك بسبب امتهانهم منصب العدالة الذى أسند اليهم بالسماح للنساء بالدخول إلى أماكن سكناهم والسكر معهم ومع بايس .. وهم :

المجرم الأثيم « باى بس » نديم سابق نفذت فيه هذه العقوبة ولكنه لما ترك وحده قتل نفسه !

المجرم الأثيم « ماى » كاتب سابق فى دار المحفوظات .

المجرم الأثيم « عاناناى » قائد الشرطة السابق .

اعفاء « حورى » من العقاب ، والاكتفاء بطرده

« شخص كان معهم وقاموا باغرائه بالقول الفاحش الأثيم ، فطرد ولم يوقع عليه عقاب : هو المجرم الأثيم« حورى » الذى كان حامل لواء سلاح المشاة » .

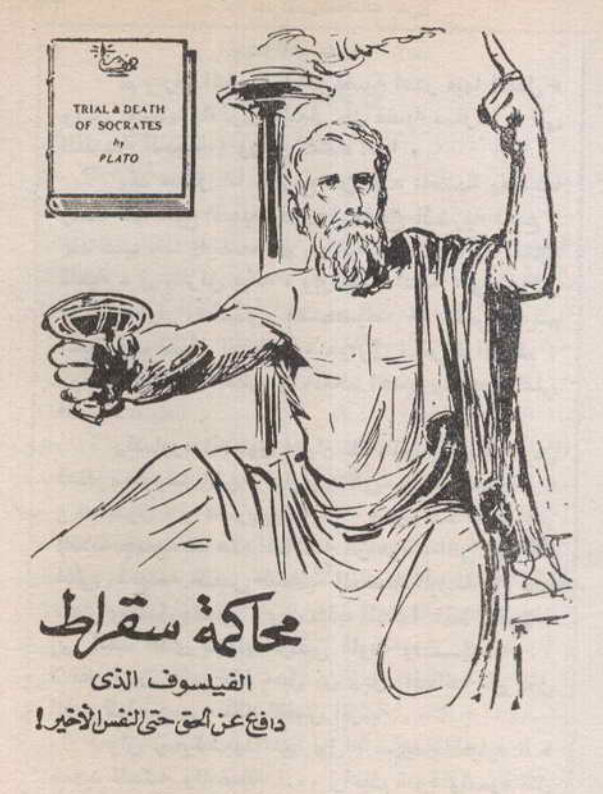
حتى إذا انتهت هذه المحاكمات عمد القضاة إلى محاكمة المشتركين فى المؤامرة بمزاولتهم السحر . واستغرقت محاكمة

مزاولى السحر ثلاث جلسات كان الحكم بعدها بالاعدام ، غير ان المتهمين كانوا يفضلون الانتحار بأنفسهم .. واليك ترجمة بعض نصوص هذه الاتهامات :

« .. وذلك انه بدا فى وضع لفائف سحرية لإحداث العجز والفزع وكذلك صنع بعض تماثيل لآلهة من الشـــمع وتماثيل بعض الأشخاص لإحداث شلل فى اطراف الناس ، واعطاها «لباى بك آمون» . وقد اجرى التحقيق فى كل جريمة وكل عمل اثيم ، فظهر انـــه فعل كل ذلك بالاشتراك مع جميع المجرمين الآثمين مما تسببت عنه جرائم قتل هائلة .. وعندما ووجه بما ارتكبه من جرائم القتل الهائلة اخذ حياته بنفسه !

وبعد ، فهذه صورة من مؤامرات التاريخ المصرى القديم ، وصورة من المحاكمات الكبرى فى عهـــد الفراعين . ومع ذلك فلم تكن مصر فى تاريخها القديم تعرف المؤامرات إلا غرارا ، بل لم تكد تعرف طوال تاريخ الفراعين الا مؤامرة أو مؤامرتين ، ذلك ان المصرى قد جبل منذ اقدم عصـــوره على الســـماحة والسلام والمحبة ..

عسى الله ان يهدينا سواء السبيل .



هذه القضية ...

لم يعرف التاريخ القديم قضية اهدر فيها العدل ، وجلل قضاتها بالخزى والعار مثل قضية سقراط ، ابى الفلسفة القديمة ، وراس حكماء اثينا .

وقد سجل لنا التاريخ عن هذه القضية وصفا رائعا قلما أتيح لقضية أخرى فى تاريخ البشرية اجمع : فقد كتب هذا الوصف قلم من أنبه اقلام الآداب العالمية قاطبة ، فى إشراق بيانه ، وبراعة ادائه ، ولباقته فى ايراد الحوار وتصوير الشخصيات .. ذلكم هو قلم الفيلسوف الفنان أفلاطون ، حوارى سقراط الأعظم ، وراس الفلسفة المثالية فى العالم القديم والحديث على السواء .

وقد أورد أفلاطون اطوار تلك القضية فى ثلاثة من أعظم محاوراته التى لا تبارى ، هى: « دفاع سقراط » و « فيدون » و « كريتون » ... وعن هذه المصادر الثلاثة جمعت لك هذه الخلاصة الزاهرة ، التى تجلو لنا اعلى ما تبلغه النفس السامية الفاضلة البريئة من حب الحق والعدل والخير ، ومن طلب الحكمة عملا لا قولا ، إلى الحد الذى يجعلها ترتضى الموت وتستعذبه .. لا نفورا من الشر فقط ، بل من مجرد التقاعد عن فعل الخير كما تتصوره تلك النفس الزكية .. !

وأن سقراط بهذا لهو أول « شهيد باختياره » ، شهيد للحكمة والفضيلة ! .. وأعظم قدوة واسوة لكل مضطهد فى سبيل الحق والخير ...

فى ملعب التمثيل

نحن الآن فى مدينة أثينا ، سيدة مدن بلاد اليونان ، إبان مجدها الزاهر ، فى ذلك العصر الذى أعقب غلبة اليونان على دولة الفرس ، وقد التمع نجم بنى الاغريق فى الفن والسياسة والحكمة والشعر .. وها هى انسام الربيع العطرة ، المحملة برائحة الكرم المزهر ، تهب من الروابى والتلال ، كأنها تحية الأرض للاله « باخوس » — رب الخمر ، والطرب ، والملذات — فى أوان عيده السنوى ..

كان ذلك سنة ٤١٣ قبل مولد المسيح .. وقد ماج مسرح اثينا الكبير بجماهير الناس من جميع الطبقات والأعمار والاهواء : بكروا إلى ذلك المسرح منذ بزغت الشمس فى مطلع النهار كى يظفروا بمقاعد ممتازة يشهدون منها درة جديدة سارت الركبان بخبرها . ولا عجب ! فصاحب تلك الدرة هو امير الشعراء الممثلين ، ورب الكوميديا فى عصره ، واحد عمدائها فى جميع العصور بلا استثناء : «اريستوفان» العظيم (الذى قدمت لك فى « كتابى » الرابع (عدد يونية ١٩٥٢) ملهاته الطريفة « سلاح المرأة ») .

اما ملهاته الجديدة التى تزاحم الناس منذ البكور ليشهدوها فى الأصيل ، فهى كوميديا « السحب » التى لا تزال تعتبر حتى يومنا هذا آية فى التهكم السائغ والفكاهة الحلوة البعيدة المرمى ..

ويبدأ التمثيل ، فاذا الناس يلحظون بطل الرواية ، فيعرفون على الفور من هو المقصود بذلك التهكم ، ويأخذون

فى الصياح ، بصوت منغم على مألوف العامة فى « الزفاف » والمواكب ، موقعين الصياح بأكفهم فى نسق راقص :

ـ سقراط ... سو .. قراط .. سوقراط !

ذلك أن بطل تلك الكوميديا لم يقصد به الا حكيم أثينا واشهر معلميها « سقراط » ! وقد مثله « أريستوفان» مبشرا بدين جديد ، داعيا إلى آلهة غير آلهة اليونان ، هى آلهة « السحب » .. متخذا من هذه الدعوة ذريعة لفتنة الناس عن ايمانهم ، وابتزاز اموالهم ، وإفساد الشباب على آلهم .. !

ورود وأشواك .. !

وزاد فى حماسة الناس وهتافهم الماجن « سوقراط .. سوقراط » أنهم رأوا سقراط بينهم بلحمه ودمه ، يشهد الملهاة كما يشهدونها ! ..

وما إن انتهى التمثيل ، بين صياح الناس وإعجابهم بسياقه وحسن فكاهته ، حتى حملوا المؤلف الشاعر « أريستوفان » على الأعناق ، وراحوا يطوفون به المسرح هاتفين مهللين مكبرين :

ـ يحيا اريستوفان العظيم ! يحيا الشاعر الملهم ...

ولم يكن ذلك غريبا ، فقد الف الناس فى اثينا ان يعقدوا فى عيد «باخوس» من كل عام مباراة للتمثيل فى «الطراغوذيا» و « الكوميديا » أى المأساة والملهاة ، فكان « أريستوفان » يفوز كل سنة بالقدح المطلى فى مباراة الكوميديا غير منازع ! ...

ولكن العجيب حقا ان يرى الناس فى نهاية ذلك التمثيل الشيخ « سقراط » على راس كوكبة من اصحابه وحوارييه ، يتقدم إلى « اريستوفان » الذى حمله الناس على الأعناق ، وقد حمل إليه بين يديه حزمة كبيرة من الورد ، مما يحمل إلى الأعزاء وذوى القدر .. تعبيرا عن تقديره لبراعة الشاعر الممثل ، ولو كانت تلك البراعة على حسابه الشخصى .. !

بيد أن « سقراطا » لم يقدم الورد إلى الشاعر كما تقدم الزهور عادة ، اى فى رقة ولين ، بل قذف بها فى وجه « اريستوفان » قذفا عنيفا ، فآذته اشواك الورد وخدشت محياه . فصاح الشاعر الثمل بخمرة النصر :

ـ ويحك ياسقراط ! لقد آذانى شوك وردك ...

فضحك الحكيم الشيخ وقال له :

ـ أما تكون لك فى أسوة حسنة يا أريسيتوفان ؟ لقد تحملت أنا أشواك فنك ، من أجل جماله وعطره الفواح ... فهلا تحملت أشواك ورودى من أجل جمالها وعطرها ؟ .. انك إذن لمن الظالمين ؟

وضحك الناس على الشاعر الذى أضحكهم قبل ذلك على الفيلسوف الشيخ ، وبذلك ثار الحكيم لنفسه قبل أن ينصرم النهار .. !

هـذا الحكيم ..

فمن هو هذا الحكيم الذى تعرفه أثينا جمعاء ، حتى لقد استحق ان يكون موضوعا لرواية من روايات « اريستوفان » العظيم ، وهو متربع إذ ذاك على قمة مجده الشاهق ؟

هل هو معلم من معلمى الحكمة المأجورين ؟ أهو رجل من رجال السياسة والحكم ؟ اهو ثرى من الثراة أو محـام من مخترفى الخطابة ؟ اهو دعى من ادعياء الكهانة كما صورته ملهاة « أريستوفان » ؟

كلا ! وإنما هو رجل من عامة الناس . كان ابوه صانع تماثيل ، وكانت امه قابلة تقوم بتوليد النساء ... فصار هو فى صدر شبابه مثالا كابيه ، ثم احترف فى اواخر عمره صناعة امه ، وهى التوليد ! فكان « يولد » الحقيقة من ادمغة الرجال، كما كانت أمه تولد الأطفال من أرحام النساء ! .. أو هكذا كان الفيلسوف الساخر يتهكم ساخرا من نفسه ..

ولم يكن « سقراط » رجلا وسيما كمعظم الاغريق . كلا! بل هو رجل قبيح الخلقة جدا ، كث الشعر ، ضخم الأنف ، غائر العينين ، ضخم الجسم ، منبعج البطن ، غير متناسق الاعضاء .. ولكنه ذو قوة عظيمة جدا . وهو إلى هذا خفيف الظل ، ساحر الحديث حاضر البديهة . فما إن ينطلق فى الكلام حتى ينسى الناس قبح خلقته ، ويؤخذوا بسحر ذلك اللسان الفكه اللامع .. !

وكان عصر «سقراط» عصر ازدهار فنى واقتصادى ، على اثر نصر اليونان على الفرس ، فنجم عن ذلك تضخم مالى ، وأثرى الكثيرون من تلك الحروب . وإذا نشأت طبقة اثرياء الحرب ، كثرت الإباحية ، وذهبت الحدود ، وضاعت معالم التربية الموروثة .. فكان ذلك ايذانا بموجة من الانحلال

الخلقى ، وإهدار القيم الأدبية ، واستباحة كل محرم ! .. ومن ثم قام نفر من ادعياء الحكمة — هم السفسطائيون — بتعليم هؤلاء الاثرياء الجدد قشور الجدل والفلسفة ، زعموا لهم ان لا حقيقة فى الدنيا ، وإنما حقيقة كل إنسان كما تبدو له ، فالحق متغير بتغير الأشخاص ، متغير باختلاف أهوائهم وحالاتهم ... ولا خير فى الدنيا إلا لذة الحس ، فكل إنسان غير مقيد فى طلب السعادة والخير الا بلذة جسمه واشباع شهواته ! .. وهكذا صار الاستهتار الخلقى بذلك التعليم الجديد فلسفة مقررة ، بعد أن كان عدوانا واختلاسا .

وهالت هذه الحالة « سقراط » ، فراح يغشى المجامع والملاعب ، يناقش أشهر الناس بالعلم ، ويلقى عليهم اسئلة تبدو ساذجة جدا ، ويتدرج من سؤال إلى سؤال حتى يوقع الشخص فى الحرج والتناقض المضحك ، فيضحك منه السامعون ، ويبدو لهم جهله .. !

واشتهر « سقراط » بهذا الأسلوب الجديد فى الحوار والفلسفة ، وفتن به كثير من الشبان الأذكياء ، فصارت له حلقة تتبعه اينما حل لتستمع إلى مناقشاته تلك ، التى يهدف منها إلى تقرير قيم الأخلاق ، وخلود النفس بعد فناء الجسد ، واقرار مبادىء للخير أسمى من اللذة الحسية الطارئة .. وكان «سقراط» يرفض مايقدم إليه من المال لقاء ذلك التعليم ،زاعما للناس انه ليس حكيما ، وإنما هو طالب حكمة . وانه جاهل ، لا يعرف شيئا سوى أنه جاهل ! .. فهو إنما « يحاول » العلم عن طريق معرفة حقيقة نفسه ، ويدعو الناس إلى معرفة

انفسهم بأنفسهم .. لان معرفة النفس أولى من معرفة العالم ..

وكان ذلك الاسلوب فى افحام الناس وتسخيف أحلامهم قمينا ان يبغضهم ويثيرهم ، فحقد عليه ادعياء الحكمة ممن يبيعون فتاوى الفساد ويعلمون الخطابة والجدل لقاء اجر ضخم ، لانه اظهر فساد رأيهم ، ونافسهم فأفسد عليهم « تجارتهم » بما آثر من الفقر والعفة .. !

شهادة الآلهة عن سقراط !

وذات يوم دق باب «سقراط» فى ساعة باكرة من الصباح ، فزمجرت زوجة «سقراط» — فقد كانت امراة جاهلة سليطة اللسان ، تسخر من زوجها وتحتقره وتسبه ، لأنه منصرف عن كسب المعاش إلى التفلسف ومناقشة الناس تلك المناقشات التى تبدو فى نظر المراة الساذجة مضيعة للوقت لا غناء فيها !

— وهمت أن ترد الطارق خائبا بعبارة من عباراتها الجارحة ، لولا أن «سقراطا» حال بينها وبين ما ارادت ، وادخل صديقه « شيريفون » مرحبا به ، سائلا اياه عن علة هذا التبكير .. فقال « شيريفون » :

— تعلم يا صديقى اننى كنت فى ركب الحجاج هذا العام إلى معبد « دلف » .. وقد طلبت إلى كاهنة الاله ابولو — اله الفنون الجميلة — ان تسأل الاله هذا السؤال : « هل فى الناس كافة من هو احكم من « سقراط الأثينى ؟ » فاذا الجواب يأتينى من الاله بغير ابطاء ان ليس فى الناس كافة من هو احكم من « سقراط » !

فصاح « سقراط » فى دهشة صادقة :

— عجبا !

— وفيم العجب ياسقراط ؟ الست قد حاججت « بروتاغورس » و « جورجياس » وهما اشهر الفلاسفة ، فضلا عن بقية معلمى الحكمة من أساطين العصر ، فاذا بك تكشف للناس عن جهلهم ؟

— صدقت ! ولكن جهلهم يا صاحبى لا يثبت علمى وحكمتى فى شىء . فأنا لست الا طالب حكمة ومعرفة . وليس لى منهما شىء . فأنا استوضح من يقول الناس إنهم اصحاب حكمة ومعرفة ، وكل ما تكشف لى من سؤالهم هو انهم ليسوا على شىء منهما . فهم لا يعرفون شيئا . ولكننى انا ايضا حيث كنت دائما : لا علم لى ولا حكمة . ولهذا ترانى ارد الناس الذين يرغبون إلى فى تعلم الحكمة على يدى ، قائلا لهم : « اعرفوا انفسكم بأنفسكم ! » .. ذلك اننى تبينت ان لا علم لدى المعلمين ، وأن فاقد الشىء لا يعطيه ...

— وذلك يا صديقى سقراط ما يوغر صدورهم عليك ...

— لقد تذكرت شيئا لعله يفسر قول الآلهة اننى احكم الناس . فالناس لا يعرفون ، ولكنهم يجهلون أنهم يجهلون ، فجهلهم مركب ! اما انا فلا اعرف ، واعرف اننى لا أعرف ... وذلك نصيب من العلم لا ينازعنى فيه إنسان !

خيوط المؤامرة

وانقضت سنوات منذ مثلت ملهاة اريستوفان «السحب» ، متددة «بسقراط» ، نامة عن حقد الكثيرين فى اثينا على هذا

الرجل الفقير ، الحاد الذهن ، الألمعى الروح ، اللاذع اللسان ! .. فلا عجب أن يزداد ذلك العدد من الخصوم والأعداء فى تلك السنوات الطوال .. وأن يجتهد أولئك الأعداء فى الإيقاع بذلك الخصم العنيد !

ولكن ماذا تراهم قائلين عنه ؟ إنه لص ؟ كلا ! فإنه العفة مصورة فى إنسان ! إنه خائن لبلده متواطىء مع الأعداء ؟ كلا ! فإنه كان ذا سابقة مشهورة من الشجاعة والإقدام والبسالة فى موقعتين سابقتين ، فقد قاتل — على كبر سنه — وصمد غير مكترث لبرد أو تعب ، ولم يفارق موضع حراسته أياما وليالى متصلات ، بغير طعام ولا نوم ! .. ذلك أن قوة هذا الحكيم البدنية كانت تضارع قوته الروحية : فقد انقذ حياة القائد العظيم « السيبياد » فى موقعة « بوتيديه » ، بأن حمله وهو جريح على كتفيه بضع مراحل ، وهو الشيخ الذى اشتعل الرأس منه شيبا ! .. أما فى موقعة « دليوم » فانه انقذ حياة « زينوفون » حين سقط عن جواده وشجت رأسه .. ولما قرر الجيش الأثينى الانسحاب فى تلك الموقعة الخاسرة ، بقى «سقراط» فى المؤخرة ، يتقهقر بظهره فى خطى وئيدة جدا ، ليحمى ظهر الجيش من هجمات المطاردين !

فلم يبقَ أمام أعداء « سقراط » اذن ، بعد تلك السابقة الحسنة فى الحرب والوطنية والنزاهة ، إلا أن يطعنوه فى عقيدته وفلسفته ، باسم الدين وباسم النظام الاجتماعى .. وهى ذريعة طالما انطلت على الغوغاء !

حبات الفول .. !

وإذا كانت هذه هى التهمة التى يدبرونها له ، فأمام أى هيئة قضائية تراهم يرفعون الدعوى ؟ أأمام المحكمة العادية ، التى يحددالقانون عدد رجالها ، ويقيد قضاتها بالنقط القانونية دون غيرها ، فلا يباح أمامها الا الكلام فى « وقائع الدعوى » المجردة ، دون اى تطرق إلى ظروفها وملابساتها ، حتى لا يفتح الباب للخطابة والتأثير على عواطف القضاة ، وضمنا بالقانون أن يكون حكمه الا عن طريق العقل وحده ؟

كلا ولا مراء ! فمثل تلك المحكمة يجلس للقضاء فيها « أهل الذكر » من رجال القانون ذوى الجد والخطر ، ولا ينتظر منهم أن يدينوا سقراطا بتلك التهمة الظالمة ! .. فليس أمام الناقمين اذن الا تقديم الحكيم « الأرستقراطى العقل والروح » إلى محكمة العامة والدهماء ... تلك التى يسمونها « محكمة الشعب » أو « محكمة الشارع » ..

فما تلك المحكمة ، ومن هم قضاتها ؟

انهم ليسوا قضاة بأى معنى من معانى تلك الكلمة فى الاصطلاح الحديث . فلا يشترط فى عضو تلك المحكمة الا ان يكون مواطنا اثينيا حرا له حقوقه المدنية .. ويتم انتخاب القضاة بالقرعة العمياء ، اى بحبات الفول ، كما جرت عادة اثينا القديمة فى اختيار الموظفين ! وهكذا يدخل فيهم البائع الجائل ، والمتسكع العربيد ، والحمار ، والقصاب ، وصياد السمك ، والمرابى .. الخ .

فأمام هيئة مكونة من خمسمائة وخمسة وستين « قاضيا» على هذا الغرار البديع من الجهل وعدم التناسق والغرور بالمنصب الفضفاض ، سعى المتآمرون أن يقف سقراط ليؤدى حسابا عن نفسه ، ويدافع عن حياته الثمينة !

وما كان ليعجز اعداءه بعد هذا – وهم اصحاب المناصب والنفوذ والثراء فى اثينا – ان يحصلوا على موافقة السلطات على نظر قضية « سقراط » امام « محكمة الشعب » هذه ، ليكون التاثير على القضاة اسهل ، واللعب بعقولهم – إن كانت لهم عقول – اقرب منالا .. !

صحيفة الدعوى .. !

وفى الربيع من سنة ٣٩٩ قبل مولد المسيح قرا الأثينيون هذا الاعلان الذى علق على « اللوحة الرسمية » فى دار الحكومة :

« إن مليتوس الأثينى يتهم سقراطا الاثينى ، ابن سفرونسك صانع التماثيل ، بمجافاته للعدالة ، وتهديده لنظامها ، لأنه اولا ينكر وجود الآلهة التى تعترف بها الجمهورية الأثينية ، ولانه ثانيا يدعو إلى آلهة جديدة ، ولأنه ثالثا رجل فاسد مفسد للشبيبة الاثينية ، وعقوبة هذه التهم ، الاعدام ! » .

وإذا كان « مليتوس » هو الذى تصدى لاقامة الدعوى امام محكمة الشعب ، فانه لم يكن الا « راس الحربة » أو « مخلب القط » ! .. وقد اختفى وراءه جل المحافظين ، أى

جل المنتفعين من الفساد الذى يحاربه « سقراط » : فساد العقيدة وفساد الفكر وفساد الذمم ومقاييس الاخلاق !

ولعل اهم من ساهموا فى تلك الدعوى : « أنيتوس » – الذى كان من اكبر رجال الدولة ! – وقد كتب صحيفة الاتهام ، ثم « ليليتوس » الذى أعد مرافعته الطنانة التى القاها أمام المحكمة ، والتى ساعده فى اعدادها الخطيب المحترم ، معلم الخطابة « ليقون » السفسطائى ! .. واغلب الظن ان الدافع الذى حفز «أنيتوس» على محاربة «سقراط» وإيذائه، أن ابنه كان من تلاميذ « سقراط » وأنه تشرب بآرائه فنفر من تجارة أبيه ومهنته ، مفضلا الحكمة على الجاه والثراء ! .. فكان أن أسرها ابوه لسقراط وعمل على القضاء عليه بنفوذه الظاهر والمستور .. والنفوذ المستور لرجال الجاه والمال كان دائما من أخطر العوامل فى أحداث التاريخ !

دفاع سقراط ..

ولما أقترب يوم المحكمة الموعود قال « هرموجين » حوارى « سقراط » لأستاذه :

– ينبغى يا سقراط أن تعد دفاعك عن نفسك وتعنى باعداده .. !

فسأله « سقراط » متجاهلا :

– وماذا كنت أفعل اذن طول حياتى ؟ .. ما اظننى كنت أفعل شيئا إلا اعداد ذلك الدفاع ، فما انشغالى بالبحث عن كنه العدل والجور ، والشر والخير ، والحق والضلال ،

إلا لعنايتى بتجنب الظلم والشرور وإيثارى التزام العدل والخير .. وذلك يا صاحبى اكرم دفاع .. ثم إننى ما فكرت فى تحضير « مرافعة » بالمعنى المعروف المألوف ، إلا خاطبنى من نفسى ذلك الصوت الذى تعرفون أنه يلازمنى ويكلمنى أحيانا كثيرة ، ونهانى عن مثل ذلك الاعداد ... ولعل مراد ذلك الصوت اذن انه خير لى لو مت ... وليس ذلك فى نظرى بالأمر العجيب !

ثم تقدم اليه « ليسياس » أعظم خطباء العصر ومحاميه ، بدفاع بليغ منمق على الطريقة التقليدية فى محاكم الشعب ، كى يحفظه ويلقيه أمام المحكمة ، فقرأ « سقراط » المرافعة معجبا بها . ثم قال له :

ــ إنها جميلة . ولكن اترانى أقبل من يدك هدية قوامها حذاء فاخر جدا مما يلبسه النساء ، ولو كان على قدر قدمى ؟ اننى يا صاحبى لا استطيع ان انسى اننى رجل ، وانه لا يليق بى إلا ما ينبغى للرجال .. !

ومن هذا ندرك ان «سقراطا» لم يعد دفاعه عن نفسه من قبل ، بل القاه ارتجالا ، وبوحى الساعة ، بحسب ما توارد على خاطره من جو الاتهام والمحاكمة .. وإذا نظرنا فى ذلك الدفاع رأيناه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

فهو يبدأ بدفع التهمة وهدمها .. ثم يعلل الحقد عليه بكرامة رسالته وشرف دعوته إلى الحق والفضيلة . ثم يختم مرافعته بتبصير القضاة بمهمتهم .. وبدلا من ترضيهم والتذلل لهم على عادة اهل ذلك العصر ، نراه يجرح غرور أولئك

القضاة ، ولا سيما حين يعلن أنه لا يقبل اى حجر أو تقييد لحريته فى المستقبل ، فهو مصمم على دعوته متى اطلق سراحه !

ايهـا الاثينيون !

فما اتم المدعون كلامهم حتى وقف « سقراط » وقال :

« ايها الأثينيون ! لقد عشت شهما شجاعا ، فثبت للعدو فى ساحة الوغى ، ولم أزايل مكانى خوف الموت ــ كما يشهد بذلك كل إنسان شهد تلك الحرب ! .. وما اراني اليوم وقد علت بى السن مستطيعا ان اهبط عن ذلك المقام فى الشجاعة والثبات ، فأتخلى عن رسالتى التى الهمتنيها السماء ، على لسان كاهنة الوحى فى معبد دلف ، والتى تهيب بى أن ابصر الناس بأنفسهم .. فاذا كان ذلك التبصير هو ما تسمونه إفسادا للشباب الأثينى ، الا إذن فاعلموا أيها القضاة انكم إن أخليتم سبيلى فى هذه الساعة ، فانى عائد من فورى إلى ما كنت عليه من طلب الحكمة وتعليمها ، مهما يكن منكم بعد ذلك فى شأنى من راى أو قضاء .. ! »

وهنا علت من القضاة الخمسمائة همهمة غضب واستنكار ، لما بدا فى لهجة « المتهم » من جفاء وتعال ، فكأنه استاذ أمام تلاميذ ، بل كأنه القاضى وكأنهم هم المتهمون ! .. بيد أن « سقراطا» لم يبال بما بدا له من غضبهم ، وإنما استرسل فى هدوء باسم مطمئن فقال :

« وإذا كان قولى هذا قد اغضبكم ايها الأثينيون ، فاعلموا اذن علم اليقين انكم إن حكمتم على بالموت ، إنما تسيئون بذلك إلى أنفسكم ، ولا تسيئون إلى .. لأن الشر إنما يحيق بأهله ، فضحية الشر والجور فاعلهما لا المقصود بهما .. وليس الشر ما يصيب الإنسان من غيره . أو من القضاء والقدر ، بل الشر ما يجلبه المرء على نفسه بجريرته وجهله لحقيقة الخير . فلئن ذهب البرىء ضحية لذلك الجهل ، فليس ذلك بضائره فى شىء ، لأنه ظل نقيا بغير دنس . أما المفترى الكاذب فذلكم هو الخاسر الخسران المبين ! ..

وعلت همهمة الغضب مرة أخرى ، فلم يأبه لها «سقراط» وإنما ازداد اصرارا على لهجته فى التقريع والتوبيخ :

« ولا تحسبوا دفاعى هذا عن نفسى خوفا عليها ، بل خوفا عليكم انتم أهل أثينا الأحباء ! فانى اخشى ان تفقدوا بفقدى رجلا لا يعوض ، وليس له بينكم نظير . فانكم وحق الآلهة لن تجدوا من بعدى أحدا يبصركم بعوراتكم ويغمز جانبكم لتركضوا كالجياد السوابق إلى غايات الخير والفضيلة والاحسان ، ولا يرخى لكم العنان لتركضوا فى مهاوى الفتنة والضلال ، بجوادين من انتكاس العقل واختلاط الفهم ، ذلك الاختلاط الوبيل الذى دابتم عليه !

وهنا ازدادت الضجة عتوا .. وادرك رئيس المحكمة ما وراء ذلك ، فالقضاة قطيع من السوقة ، لا يفهم القانون ولا اصول المحاكمات ، وإنما يحكمون بأهوائهم وعواطفهم ، فقال « لسقراط » !

— أى «سقراط» ! أليس أولى لك ثم أولى أن تكسب عطف المحكمة بدلا من أن تتحداها بهذا الزهو والشموخ ؟ ..

فقال له « سقراط » ؟!

— وماذا تريدنى أن أقول أيها الرئيس ؟ اتريدوننى حقا أن أترضاكم يا أهل أثينا بالمديح والثناء الكاذب ، وأن أرضى غروركم بالتوسل والبكاء ، وأجلب أولادى وزوجتى أمامكم لترأفوا بحالهم وتنقذوهم من اليتم والترمل ؟ اننى لو فعلت لصدق فى اذن قول « ميليتوس » ، فان أخذكم بالعواطف الرخيصة دون اقناعكم بالعقل لهو التغرير بكم ، ورشوتكم ، وخداعكم ، وافساد خلقكم ... فلقد اقسمتم اليمين على احترام القانون وتحريه فى ما تصدرون من أحكام . والقانون عقل لا مجاملة عاطفية . وحملكم على الحنث بتلك اليمين افساد لدينكم وخلقكم ، ولست أنا الذى يفعل هذا المنكر الذى رمانى به متهمى « ميليتوس » ظلما ، به إنى سلخت عمرى فى دعوتكم إلى طاعة الآلهة بطاعة قوانينها الحقة التى طبعتها فى النفس ، وهى صورة العقل دون بقية النوازع والنزوات .

فاحكموا اذن أيها القضاة بما شئتم ، فذلك شأنكم أنتم ، واعلموا أن نفوسكم هى التى فى كفة الميزان لا نفسى ، فاحرصوا على العدل والحق ، فهو خير لكم وأجدى عليكم وأحسن عقبى .. وانى مستريح إلى ما بصرتكم به من عاقبة الطريق ، فارعوا أنفسكم بما تتوخون من العدل أيها القضاة ! »

ادانة .. !

وتداول القضاة شر تداول ، وقد اشتراهم خصوم « سقراط » ، وصدق على البيع « سقراط » نفسه ، بما اسمعهم من قارص القول ! .. فما كان لمثل هؤلاء العوام والسوقة ان يفهموا لغة « سقراط » ، فركبوا رؤوسهم وقرروا ادانته !

وجرت العادة ان يسال رئيس المحكمة المتهم بعد ان يصدر قرار الإدانة ، اى عقوبة يحسب أنه مستحق لها ؟ .. فلما القى الرئيس على « سقراط » ذلك السؤال ، اجابه هذا باسما :

— إن اليق حكم تصدرونه فى حقى أيها القضاة ، أن تحكموا لى أن أطعم واكسى على نفقة الدولة بقية عمرى ، اعترافا منكم بما اسديت لأثينا واهلها من الخير ، وما بصرتهم به من الحق والعدل !

فكان هذا الجواب اللاذع ثالثة الأثافى ، فقد زاد من حنق قضاته عليه ، وغضبهم من استعلائه وسخريته بهم ، واستصغاره لشأنهم .. فأحبوا أن يفهموه مقدار سلطانهم على مثله ، فحكموا عليه بالموت ، باغلبية ٢٨١ صوتا ضد مائتين وعشرين .. على أن يكون موته بتجرع السم مذابا فى كاس من العسل .. !

وكان تعقيب « سقراط » على هذا الحكم الشائن انه انتصب واقفا وقال فى اباء ووقار :

— لى بعد ذلك رجاء اتوجه به اليكم معاشر الأثينيين : إذا أنتم وجدتم أبنائى من بعدى يعدلون عن طلب الخير والعدل إلى تحصيل الدنيا ومتاعها ، فشهروا بهم ، وازجروهم عن ذلك زجرا شديدا ، كما كنت انا أزجركم عن هذا الأمر البغيض . فان أنتم فعلتم ذلك اوفيتمونى ما اديته لكم عمرى كله من جزيل الأيادى .. أما الآن فقد آن لنا أيها القضاة والمواطنون أن نفترق، ليحظى كل منا بما قسم له ، أنا بالموت، وأنتم بالحياة ... أما اينا أسعد حظا بما اوتيه واهدى سبيلا فعلم ذلك عند علام الغيوب .. !

فى السجن

وبذلك انتهت أنكد محاكمة عرفها التاريخ القديم ، وخرج بطل حرية الفكر من المحكمة اهدا نفسا مما دخلها ... فلزم سجنه ، يلم به فيه تلاميذه فيحاورهم فى الفلسفة وخلود الروح ، مسريا عنهم ما يلقونه من أجله من حزن وغضب ، مستخفا بما سيحيق به ، مستمسكا بمبدئه فى البر وخلود النفس وتزكية الروح بالفضيلة ...

وتأخر تنفيذ الحكم انتظارا لوصول ركب الحجاج المقدس، الذى كانت فترة غيبته عن أثينا تعتبر أشهرا حراما لا يجوز فيها انفاذ حكم الموت فى احد ! .. حتى إذا أزف الوقت ، وشوهد فى الفجر شراع الركب المقدس عند الأفق ، طرق باب السجن « كريتون » حوارى « سقراط » المحب له ..



وبذلك انتهت انكر محاكمة عرفها التاريخ القديم ، وخرج بطل حرية الفكر من المحكمة أهدأ نفسا مما دخلها ..

الموت أحب إلى مما يدعوننى إليه !

وقال « كريتون » لأستاذه إن الركب بدا على الأفق ، وان اليوم لن يختم الا وهو ميت ! .. فلم يكترث « سقراط » لذلك النبأ . فقال « كريتون » هامسا :

ــ لقد اعددنا كل شىء للهـرب ، ورشونا الحارس ، وجهزنا الشراع والمـال والمـأوى فى « تساليا » ، فهيـا بنا يا أستاذى إلى الحرية !

فحملق « سقراط » فى تلميذه الشاب وقال :

ــ كلا يا كريتون . لن أهرب من الموت !

ــ وكيف ؟ أمن العدل أن تسلم نفسك غنيمة باردة سهلة لأولئك الأجلاف الجهلاء ، وأنت قادر على النجاة بنفسـك ؟ أم تراك تحب أن تترك اولادك الصغار تحت رحمـة القدر ، ولا تعيش معهم لتربيهم تحت كنفك ؟

ــ كلا يا كريتون ! اننى لا استطيع ان اتخلى عن المبادىء التى ناديت بها عمرى كله ، لا لشىء الا لأن نازلة توشـك أن تحيق بى . بل إننى يا كريتون أرى هذه المبادىء الثمينة التى ناديت بها ودعوت إليها وعشتها حتى اليـوم ، جديرة بذلك الثمن الذى أوشك ان ابذله هذا النهار فى سبيل تحقيقها وإعلاء كلمتها ! فان العقل الذى بشرت به النـاس يشـير على انه لا ينبغى أن نقابل الشر بالشر ، ولا ان نحيـد عن العدل لأن الناس حادوا عنه. فكل مواطن يجب ان يخضع لحكم القانون،

بالغا ما بلغ ذلك الحكم من الجور والضـلال ! فماذا أنا قائل لو تمثلت لى قوانين الدولة بشرا سويا عند باب سجنى هذا وأنا لائذ بالفرار ، وقالت لى :

– إلى أين يا سقراط ؟ أليست فعلتك هذه قلبا لنظام الدولة واخلالا به جهد طاقتك من الاخلال ؟ وأى دولة تستطيع الثبات يا سقراط لو استباح كل فرد فيهـا عصيان أحـكام محاكمها ؟

« أجل يا كريتون ، ليست الحياة نفسها شيئا .. وأما أن نحيا حياة الخير والعدل والحق ، فذلك هو كل شىء ! .. فلندع هذا الموضوع جانبا يا كريتون ، ولنمض دون وجل فى الطريق الذى رسمته لنا الآلهة ... **واعلم أننى أرحب بهذا** الفكاك من أسار الجسد ، كى تستطيع الروح مشاهدة الخير والعدل والجمال ، دون عائق ولا حجاب ، فى العالم الآخر . **فلا تحزن يا كريتون ، وثق أن الجسد فان ، أما الروح فخالدة،** لأنها هبة الآلهة ، فهى مثلهم باقية لا تموت .. !

وحين أتى له الحارس بالسم ، تجرع « سقراط » كأسه .. لكنه بقى حيا فى ذاكرة الإنسانية ، وهيهات لمثل «سقراط» أن يموت .. !

العدالة فى أثينا القديمة



هذه المحاكمة ...

كل محاكمة مأساة .. وفى محاكم كل دولة ، وفى كل عصر ، تقع كل يوم منازعات ومساجلات بالغة التشويق للنظارة .. منازعات تكشف الغطاء عن البشر كما هم فى حقيقتهم ، وليس كما قد نريدهم نحن أن يكونوا ! .. ومن ثم فليس مجرد الشغف بالماضى السحيق هو ما يدفعنا اليوم إلى نبش قضايا ومحاكمات نظرت أمام محاكم أثينا القديمة .. وإنما هى حاجتنا إلى تفهم أحوال تلك الدولة اللامعة التى خلفت الكثير من أسمى قيم الحضارة : فى السياسة ، والشعر ، والعلم ، والهندسة ، وفن الحياة ... ومن ناحية أخرى فان هذه الدراسة سوف تضيف مادة هامة إلى معرفتنا بالطبيعة البشرية بصفة عامة ..

ثم إن هذه المحاكمة تظهرنا على زيف الفكرة العاطفية السائدة ، التى تزعم أن المواطن فى أثينا القديمة كان ينفق كل وقته فى مناقشة الحقيقة والجمال ، والتطلع إلى « البارثنون » ! .. فهذه المحاكمة تظهر ذلك المواطن كما كان فى حقيقته : إنسانا مثلنا من لحم ودم وأعصاب ، وليس مخلوقا ساميا أو نصف إله !

ولم يكن فى أثينا القديمة صحف إخبارية نرجع إليها لنتعرف أحوالها .. ومن ثم فان أمثال هذه المحاكمة تكشف لنا — أكثر من أى مصدر آخر للاستعلامات — كيف كانت الحياة فى الدولة التى عاش فيها أرسطو ، ويوريبيدس ، وديموستين .. وغيرهم من الذين ساهموا فى ميراث العالم الفنى والفكرى بكنوز لا نظير لها ! .. فهى تلقى الكثير من الضوء على الرجال والنساء الذين كانوا يذرعون شوارع أثينا مع أفلاطون وسقراط ، والذين من أجلهم ألف كتاب المسرح الاغريق مسرحياتهم الخالدة !

وأخيرا ، فان هذه المحاكمة تثبت بالدليل القاطع صدق المبدأ اليونانى القائل : إنه فى جميع العلاقات البشرية ، وشتى نظم الحكم ، ينبغى أن تكون السيادة للقانون — أى للحق والعدل — وليس للشهوة أو المصلحة الذاتية ! .. وأن النظام القضائى الأثينى ، بكل أخطائه ، كان معدا لا ليخدم طبقة معينة ، ولا ليخدم الدولة .. وإنما ليخدم المواطن الفرد .. أيا كان مركزه!

« لا جديد تحت الشمس » .. أنها القاعدة التى يأبى الزمن الا أن يؤكدها ويثبت صحتها .. حتى فى ميدان الجرائم والقضاء ! ... فان النفس البشرية ، أو الغريزة الإنسانية هى هى مهما التفت فى أثواب متباينة من الحضارات ..

وقصة محاكمة « يوفيليتس » مثال حى يشهد بذلك !

عندما تتفتح عينا الزوج المخدوع !

كان « يوفيليتس » مواطنا يونانيا يعيش فى اثينا فيما بين سنتى ٤٠٠ و ٣٨٠ قبل ميلاد المسيح .. وكان راضيا ، قرير العين ، سعيدا بزوجته وبابنهما الرضيع الذى جاء ثمرة لهذه الزيجة الموفقة ..

ثم دفع القدر إلى طريقه بما فتح عينيه على ان زوجته تخونه ! .. ووضح له ان عشيقها الفاجر – المدعو يراتوستينس – هو الذى أغواها واستهواها ، ولعله آمن بانها ما كانت لتنزلق إلى الغواية لولا ان الآثم سعى إلى ايقاعها .. فلما فاجأ غريمه هذا ذات ليلة فى مخدع زوجته ، لم يتردد فى ان يقتله !

وكانت القوانين الاغريقية تهدر دم الزانى ، وتبيح للمواطن ان يقتل من يعتدى على حرمة داره ، ويستمرىء عرضه .. اللهم إلا إذا اجتمعت الأدلة والقرائن على ان ثمة بواعث اخرى للجريمة قد استترت وراء الذود عن الشرف ..

طعن فى صحة بواعث الجريمة

ولقد شاء اهل القتيل ان يستغلوا هذه الثغرة فى القوانين ، فطلبوا محاكمة القاتل زاعمين ان قصته ملفقة ، وأن الجريمة مدبرة لدوافع اخرى ..

وانكر « يوفيليتس » فى التحقيق ان ثمة حوافز اخرى قد دفعته عدا الغيرة على الشرف والانتقام للعرض ..

وعرضت القضية على هيئة للمحاكمة .. وكان على المتهم ان يثبت براءته ويقيم حجته ، او يقضى عليه بالاعدام .. غير أن العرف كان يدع لغير الواثق من قضيته مخرجا ، إذ كان يبيح له – إذا ما استبان فى نهاية اليوم الأول أن قضيته خاسرة – أن يغادر البلاد .. فيقضى ما بقى من عمره منفيا ، وتصادر ثروته واملاكه ..

ولكن « يوفيليتس » لم يلجأ إلى هذا المخرج ، فقد كان شديد الثقة بصواب موقفه ، وقوة حججه .. وكان قد تاهب ليعرض على هيئة المحاكمة دفاعه – إذ كانت المبادىء القضائية عند الأثينيين تستوجب من المتهم ان يلقى دفاعه او مرافعته بنفسه امام هيئة المحكمة ، التى كانت تتألف من محلفين .. ولم يكن له ان يوكل محاميا يترافع عنه ، وإنما كان المسموح به للمتهم – إذا لم يكن متكلما لبقا ، او على دراية بالقوانين التى تؤيد حججه – ان يلجأ إلى كاتب يعد له المرافعة ، على أن يتولى المتهم بنفسه القاءها فى المحكمة ..

وهذا ما فعله « يوفيليتس » ، إذ عهد إلى « ليسياس » بأن يصوغ له خطاب الدفاع .. وكان « ليسياس » هذا من نوابغ الكتاب الذين برعوا فى تأليف المرافعات ، وتفسير القوانين وتأويل معانيها ..

الجريمة التى يتساوى ازاءها الجميع

وكان « يوفيليتس » هادىء الجاش ، بادى الطمأنينة خلال المحاكمة .. حتى إذا انتهى المدعى من القاء دعوى

الاتهـام انبرى « يوفيليتس » يلقى المرافعـة التى اعـدها « ليسياس » والتى سجلها التاريخ مثـلا من اروع امثلـة المرافعات ..

وقد بدا المتهم دفاعه قائلا :

« يا حضرات القضاة .. اننى لأضحى بالكثير كى اراكم — كقضاة موكلين بالفصل فى هذه القضية — تتخذون نحوى عين المسلك الذى كنتم تتخذونه نحو أنفسكم ، لو انكم اضطررتم للتصرف فى ظروف كتلك التى كانت تحوطنى . فاننى لموقن بأنكم لو نظرتم إلى سواكم نظرتكم إلى أنفسكم ، لما احجم احدكم عن ان يثور غضبا لما حدث من إثم ، ولأجمعتم على اعتبار العقاب الذى اوقعته بالقتيل ، عقابا ضئيلا بالنسبة لما ينبغى نحو اولئك الذين يرتكبون مثل ذاك التصرف الاجرامى .

« ليس هذا فحسب ، بل إن هذا الراى لن يكون رأيكم وحدكم ، وإنما هو راى اليونان كلها .. فهذه هى الجريمة الوحيدة التى يؤخذ فيها القصاص لأوضع الناس شأنا من ارفعهم مكانة ، وينال فيها الحقير من العدالة قدر ما ينال العظيم سواء بسواء ، مهما كانت الحكومة القائمة .. ديموقراطية او استبدادية .. وهـذا كفيل بأن يريكم مدى ما يكنه الجنس البشرى كافة من سـخط على امثال القتيـل من لصـوص الأعراض !

القتيل هو الذى سعى وراء الزوجة واغواها

« وما اراكم الا مجمعين على تحبيذ قسوة العقاب الذى يلقاه مرتكب هذا الجرم ، ولن يكون بينكم من يبلغ به التساهل أن يؤمن بأن من الجائز الصفح عن مقترفيه ، او التخفيف عنهم فى العقاب ..

« والذى اريد ان اثبته الآن هو أن « ايراتوستينس » قد اغوى زوجتى ، وانه إذ افسدها قد جلب العار على اولادى ، كما فضحنى وهتك حرمتى فى عقر دارى .. وما كان بينه وبينى اى عداء غير هذا .. ومن ثم فاننى لم أرتكب ما ارتكبت طمعا فى مال يرفعنى من الفقر إلى الغنى .. بل ما سعيت لأى نفع سوى أن اثار لنفسى فى حدود ما اباحه لى القانون .

« ولسوف اروى لكم قصتى تفصيلا من البداية ، ملتزما الصدق ، غير مغفل اى شىء .. فانى لأرى فى هـذا وحـده نجاتى .. وارجو ان اوضح لكم كل ما جرى .. »

اللقاء الأول ، وخطة الفاجر لنيل الزوجة !

وبعد هذه المقدمة الموجزة ، التى عنى فيها «يوفيليتس» — أو بالأحـرى « ليسياس » كاتب المرافعـة — بان يبرز ما اجمع عليه الناس من استنكار لجريمة « الزنـا » وهتك العرض ، انتقل إلى تفصيل القصة فى اسهاب قائلا :

« يا حضرات القضاة : عندما قررت ان اتزوج وانفذت رغبتى وحملت زوجتى إلى دارى ، كان اهم ما حرصت عليه فى مسلكى معها ان اتجنب كل ما يسوؤها ، دون تفريط يطلق لها الحبل على غاربه .. ومن ثم راقبتها قصارى جهدى ، وكما ينبغى .. ولكننى لم البث بعد ان انجبت ابنى ، ان ركنت إليها ، ووثقت فيها ، فأسلمتها كل ما أملك ، اعتقادا منى بأن هذا اعظم برهان على ما اكنه لها من حب ..

« واشهد يا حضرات القضاة بأنها كانت فى أول الأمر من خير النساء .. كانت زوجة وربة بيت بارعة ، مقتصدة . دقيقة فى تدبير كل شىء ..

« ثم ماتت أمى .. وقد اظهرت الأيام ان موتها كان مبعث كل متاعبى ، إذ كانت جنازتها أول مناسبة وقعت فيها عينا ذاك الرجل « ايراتوستينس » على زوجتى ! .. ومع مضى الزمن ، استطاع ان يغويها .. فقد ظل يتبع خادمتنا كلما سعت إلى السوق ، ثم اغراها بما اعد من خطط ان تساعده على افساد مولاتها !

كنت من الغفلة بحيث آمنت بعفة زوجتى !

« على انه يحسن بى اولا ايها السادة ، ان اذكر لكم اننى أملك بيتا صغيرا مؤلفا من قسمين : قسم للرجال ، وآخر للحرم ، وكلاهما سواء فى الحجم .. وقد جعل قسم الحريم فى الطابق العلوى ، وقسم الرجال فى الطابق الأسفل ..

« فلما ولد ابنى ، تولت زوجتى رعايته بنفسها ، فأشفقت عليها من أن تضطر إلى هبوط السلم كلما ارادت ان تنظفه وتهيىء له حماما .. ومن ثم انتقلت إلى الطابق العلوى ، وافردت الطابق الأسفل للحريم .. ومن هنا اعتادت زوجتى أن تهبط إلى الطابق الأسفل كل مساء فتنام مع الطفل لتلقمه ثديها كلما بكى ..

« ودامت هذه الحال زمنا طويلا دون أن يداخلنى ادنى شك .. بل إننى على العكس كنت من الغفلة بحيث آمنت بان زوجتى هى اكثر نساء المدينة عفة وطهرا .. !

عودة غير مرتقبة .. وتصرف غريب !

« ومضى الزمن تباعا أيها السادة .. إلى ان كان يوم عدت فيه إلى دارى من سفر فى الريف ، لم تكن عودتى منه مرتقبة فى ذاك الموعد .. وبعد ان تناولت العشاء مع زوجتى، تناهى الينا بكاء الطفل وشكواه .. والواقع — كما تبينت فيما بعد — أن الخادم كانت تقرص الصغير ليرفع عقيرته بالبكاء ، كى تخف الأم إلى الطابق الأسفل .. لأن ذلك الرجل كان فى الدار !

« على اننى لم اكن أدرى ذلك ، فالححت على زوجتى ان تذهب فترضع الصغير كى يكف عن البكاء ، ولكنها ابدت — متصنعة — ان سرورها بعودتى بعد طول الغياب يجعلها تشفق أن تفارقنى .. غير اننى لم البث أن ضقت برفضها ، واصررت على أن تذهب للطفل ، فقالت :

— آه .. تريد ان اذهب لاتركك وحيدا مع الخادم هنا ! .. لقد سبق ان اعتديت عليها حين كنت ثملا ..

« وضحكت من قولها ، فى حين نهضت هى فغادرتنى . واغلقت الباب بالمفتاح متظاهرة بأنها تستثيرنى مداعبة ! .. ولم ار ضيرا فى ذلك على الاطلاق فما كان يداخلنى اتفه ريب .. لذلك لم البث ان أويت إلى مضجعى وقد لذ لى النوم بعد التعب الذى عانيته من رحلتى فى الريف ..

صرير الأبواب فى جوف الليل !

« وقبيل الصباح ، عادت زوجتى ، وفتحت الباب .. وكان أول ما تبادر لى ان سألتها عن السر فى اننى سمعت صرير الأبواب فى الليل ، فزعمت ان المصباح القائم إلى جوار فراش الطفل انطفأ ، وانها خرجت تسأل الجيران ما توقده به ثانية ..

« ولم الح فى السؤال ، فقد صدقتها .. وان كنت لاحظت — يا حضرات القضاة — على وجهها آثار الزينة ، وبقايا المعاجين والمساحيق ، رغم انه لم يكن قد انقضى شهر على وفاة اخيها .. ومع ذلك فقد آثرت ان لا اقول شيئا ، بل انصرفت عنها دون ان انبس ببنت شفة ..

« ومرت فترة — يا حضرات القضاة — اخذت جراح نفسى خلالها تستفحل فتزيد حالى سوءا .. إلى أن كان يوم، اعترضت طريقى فيه امراة عجوز — علمت فيما بعد انها كانت موفدة من عشيقة « ايراتوستينس » السابقة ، التى

استبد بها الحنق لأنه لم يعد يسعى إليها ، فما زالت تبحث حتى استبان لها السبب .. ومن ثم جاءت العجوز ، وقبعت فى انتظارى على مقربة من دارى .. حتى إذ رأتنى تقدمت نحوى وابتدرتنى قائلة :

— يوفيليتس .. ارجو ان لا تظننى راغبة فى التدخل فى شئونك ، ولكن الواقع أن الرجل الذى يسىء اليك وإلى زوجتك ، عدو لنا .. ولو انك امسكت بالخادم المنوط بها ابتياع حاجيات بيتك والتى تعمل فى خدمتك ، وضيقت عليها الخناق ، فانك لن تلبث ان تكتشف كل شىء !.. ان الفاجر يدعى « ايراتوستينس » ، وهو من (أويا) .. وليست زوجتك أول امراة اغواها .. فقد سبقتها كثيرات .. إذ أن الغواية همه وشاغله !

« وما إن نطقت بهذه الكلمات يا حضرات القضاة ، حتى انفلتت منصرفة ..

« واستبدت بى الحيرة فى البداية .. وتدافعت الأفكار إلى رأسى فملأتنى ارتيابا : تذكرت كيف اغلقت زوجتى دونى باب مخدعى .. وتذكرت كيف اننى سمعت صرير البابين الأوسط والخارجى فى تلك الليلة ، وهى ظاهرة غير معتادة ، ولم يسبق ان حدثت ... وتذكرت كيف اننى ارتبت فى وجود آثار مساحيق التجميل على وجه زوجتى .. كل هذه الأمور تدافعت إلى ذهنى فأذكت شكوكى !

انتزاع الاعتراف من الخادم !

« وعدت إلى دارى ، فطلبت إلى الخادم أن تصحبنى إلى السوق .. ولكننى بدلا من ذلك استدرجتها إلى بيت أحد أصدقائى ، وهناك ، فاجأتها باننى اكتشفت كل ما كان يجرى فى بيتى .. ثم قلت معقبا :

ـ أمامك مسلكين تختارين احدهما : إما أن تجلدى وترسلى إلى الطاحونة تديرين رحاها وتعيشين ما بقى من عمرك فى تعاسة تامة .. وإما أن تعترفى بالحقيقة كاملة فلا تتعرضى لأى عقاب ، وانما تنالى منى العفو عن ذنبك .. فلا تحاولى الكذب ، بل قولى الحق الصراح ..

« حاولت الفتاة فى البداية أن تنكر ، وقالت إنها لا تعرف شيئا ، وإن لى أن افعل بها ما اشاء .. غير اننى لم اكد اصرخ باسم «ايراتوستنيس» فى وجهها واذكر لها انه كان يتردد على زوجتى ، حتى بهتت ، وخيل اليها اننى قد اكتشفت كل شىء حقا ، وإذ ذاك ارتمت على قدمى .. وما إن حصلت منى على وعد بأن لن يمسها اى ضرر ، حتى فضحت القصة باكملها : ذكرت كيف اتصل بها الشقى فى البداية عقب جنازة امى .. وكيف أنها رضخت له فى النهاية فحملت رسالته إلى زوجتى .. وكيف أن زوجتى لم تلبث بعد زمن أن اغترت .. وذهبت اثناء غيابى فى الريف إلى حفل دينى مع أم ذلك الرجل ! .. ثم شرحت لى الخادم كيف أنه جرؤ أخيرا على ولوج دارى .. وروت لى كل ما حدث بحذافيره ..

سارق الأعراض يتسلل إلى الدار ..

« وإذ أدلت التعسة بكل ما كان لديها ، قلت لها :

ـ حذار أن يعرف أحد بشىء من هذا ، وإلا فلن أرعى عهدى لك ! .. ثم اننى سأرتقب منك أن تمكنينى من ضبط الآثمين متلبسين .. فليس للقول المجرد قيمة ، وانما انا ابغى الدليل الواقعى على ما ذكرت !!

« وقبلت الفتاة أن تفعل ..

« وانقضت بعد ذلك اربعة ايام او خمسة ـ ولدى قرينة هامة تثبت ذلك ـ ولكننى قبل أن اطلعكم عليها ، أحب أن أروى احداث اليوم الأخير . كان صديق وقريب لى ـ يدعى « سوستراتس » ـ عائدا من الريف بعد مغرب الشمس ، فالتقيت به .. وكنت أعرف أنه لتأخره فى العودة لن يجد احدا من أهله فى داره ، ولذلك دعوته كى يتناول عشاءه معى .. وعلى هذا سعينا إلى بيتى ، وصعدنا إلى الطابق العلوى ، حيث تناولنا العشاء .. حتى إذا اخذ ضيفى قسطا كافيا من الراحة ، انصرف .. فأويت انا إلى مضجعى ..

« وعلى اثر ذلك ـ يا حضرات القضاة ـ دخل « ايراتوستينس » إلى دارى ، فأيقظتنى الخادم وانبأتنى بوجوده !

الفاجر يفاجأ متلبسا بجريمته !

« وطلبت اليها أن تراقب الباب ، ثم هبطت السلم .. وتسللت فى غير ما ضجة إلى الخارج ، فذهبت إلى بيوت نفر

من أصدقائى تباعا .. ووجدت بعض من كنت انشد فى دورهم، بينما قيل لى أن الآخرين كانوا خارج المدينة .. وهكذا جمعت اكبر عدد ممكن ممن كانوا موجودين ، وعدت بهم إلى بيتى ، فحصلنا على مشاعل من المتجر القريب ، ثم نفذنا إلى الدار .. وكان الباب قد ترك مفتوحا كما دبرت مع الخادم ..

« واقتحمنا غرفة النوم ، بعد أن حطمنا بابها .. فرأى أول الداخلين غريمى وهو ما يزال راقدا إلى جوار زوجتى ! .. أما الباقون فرأوه حين ولجوا ، وقد وقف على الفراش عاريا !

« وبلكمة واحدة – يا حضرات القضاة – اطحت به ، ثم لويت ذراعيه خلف ظهره وأوثقتهما . وسألته بعد ذلك عما حدا به إلى ارتكاب هذه الجريمة ، وهتك عرضى ، والسطو على دارى ..!؟

« فأجابنى بأنه يقر بجرمه ، وراح يتوسل إلى ويضرع ان لا اقتله ، وأن اقبل ترضية مالية فى مقابل ذلك . غير أننى اجبت صائحا :

– انما الذى سيقتلك هو قانون الدولة لا انا .. القانون الذى خالفته وجعلت لملذاتك وزنا يفوق وزنه .. لقد آثرت ان ترتكب هذه الجريمة ضد زوجتى وأولادى ، على ان تطيع القانون وتخشاه فى تصرفاتك .. فلا تلومن الا نفسك !

« وهكذا يا حضرات القضاة ، لقى ذلك الرجل المصير الذى نصت عليه القوانين جزاء لكل أثيم على شاكلته .. »



واقتحمنا غرفة النوم ، بعد أن حطمنا بابها .. فرأى أول الداخلين غريمى وهو ما يزال راقدا الى جوار زوجتى !..

مناقشة مزاعم الاتهام

وإذ بلغ « يوفيليتس » هذا الحد من مرافعته ، تحول يناقش مزاعم الاتهام ويدلى بحججه قائلا :

« أن «ايراتوستينس» لم يؤخذ من عرض الطريق ويحمل إلى دارى ، لا ولم يكن قد لاذ بمخدع زوجتى فرارا من عدوانى عليه بغير حق ، كما يزعم المدعى .. بل أن الوقائع تناقض هذا ، فالضربة التى تلقاها منى إنما تلقاها فى غرفة النوم وهو متلبس بجرمه ، وقد خر على اثرها ، فأوثقت يديه خلف ظهره .. ولم يكن ثمة منفذ للفرار ، إذ كانت الغرفة تغص بالناس ! .. ولا كان معه سلاح من حديد أو خشب أو اى نوع آخر من الأسلحة يدافع به عن نفسه ضد أولئك الذين دخلوا الحجرة ..

« لا ياحضرات القضاة .. انكم تعلمون مثلى أن الآثمين يأبون دائما ان يقروا بأن خصومهم يقولون الحق ، وانما هم يسعون بالأكاذيب والخدع وما اليها إلى اثارة المستمعين ضد أولئك الذين تحروا فى أعمالهم ما تقتضيه العدالة .. »

وهنا التفت المتهم إلى كاتب المحكمة وهتف به :

— الا فلتتل نص القانون ..

فتلى الكاتب « قانون صولون » الذى يبيح لمن يضبط زانيا اثناء ارتكابه جريمته أن يقتله !

وتحول « يوفيليتس » يستأنف مرافعته : « انه لم ينكر إثمه يا حضرات القضاة ، بل اقر بذنبه ، وتوسل وتضرع

لينجو من القتل ، ثم عرض أن يدفع فدية .. ولكننى لم اقبل ما عرض ، وآثرت أن اجعل لقانون الدولة الكلمة العليا ، وإن ارضى كرامتى بتوقيع العقوبة التى قدرتموها على من يرتكب مثل هذه الكبائر ، شعورا منكم بانها اعدل جزاء يناسب بشاعة الجرم ..

« والآن ، ليتفضل شهود الحادث بالمثول بين يدى المحكمة .. »

وتقدم الشهود ، فقرأ كاتب الجلسة اقوالهم ، حتى إذا اتمها اقروا بأنها صحيحة .. وعندئذ ، قال المتهم :

— والآن .. ارجو ان يقرأ كاتب المحكمة هذا القانون المنقوش على عمود محكمه « اريوبيجس » ..

وتلا الكاتب نصا آخر من قانون « صولون » سجله على عمود بمحكمة « أريوبيجس » ..

القوانين تدعو لقتل هاتك الأعراض !

ثم شرع المتهم يستكمل مرافعته قائلا :

« أسمعتم يا حضرات القضاة كيف سجلت بجلاء محكمة « أريوبيجس » — التى كان معهودا اليها فيما مضى ، كما هو فى عهدكم هذا ، أمر النظر فى قضايا القتل — ان لا جناح على الشخص الذى يضبط آخر يزنى مع زوجته فينزل به عقوبة القتل .. ولقد بلغ من اقتناع المشرع بهذه النصوص فى حالة المتزوجات ان عمد إلى تعميمها بالنسبة لكل امرأة فى حيازة رجل ، فجعلها تشمل السرارى والمحظيات ، مع انهن

اقل مكانة من الزوجات .. ومن ثم فمن الواضح انه لو كان قد وجد عقوبة اخرى أشد وأقسى — فى الأحوال التى تختص بالزوجات — لأوردها وقررها .. اما وقد تعذر عليه ان يبتكر عقوبة اشد ، كى تفرض على من يفسد الزوجات ، فقد اكتفى بأن قضى عليه بعين العقوبة التى تحل بمن يفسد المحظيات والجوارى .. ! »

والتفت « يوفيليتس » إلى كاتب الجلسة قائلا :

— الا اقرا هذا القانون أيضا ..

فقرأ الكاتب بعض النصوص الأخرى التى وردت عن الفسق فى قوانين « صولون » (٥).

الفرق بين الاغتصاب والغواية

ثم استطرد المتهم فى دفاعه قائلا : « ها انتم اولاء يا حضرات القضاة تسمعون كيف امر المشرع بأن تكون الغرامة التى تفرض على من يعتدى غصبا على أى حر — رجلا كان أو صبيا — ضعف تلك التى فرضت فى حالة اغتصاب العبد .. فاذا «اغتصب» رجل امراة وجب بالأحرى ان تفرض عليه الغرامة المضاعفة !

.. ومن هذا ترون يا حضرات القضاة ان المشرع جعل عقوبة المغتصبين أخف من عقوبة أولئك الذين يغوون النساء، فقرر لهؤلاء الموت قصاصا ، واكتفى بالنسبة للآخرين بالغرامة المضاعفة ! .. وكانت الحكمة التى أملت عليه هذا التفريق ، ان المغتصبين الذين يستخدمون القوة والعنف يكونون موضع

مقت وازدراء المعتدى عليهن ، فلا يفقد زوج المراة المغتصبة حقه المشروع من حبها وعواطفها ! .. فى حين ان أولئك الذين ينالون مآربهم بإغواء النساء وإفساد عقولهن إنما يحملون زوجات الغير على ان يتعلقن بهم اكثر مما هن بأزواجهن ، ومن ثم تصبح الاسرة كلها تحت سلطانهم ، وتختلط الأنساب فلا يدرى احد من يكون أب الأطفال .. أهو الزوج أم العشيق !

« هذه الاعتبارات هى للتى حملت المشرع على ان يفرض الموت عقوبة للإغواء (٥)

لماذا تحرص الدول على سن القوانين ؟

« وهكذا ترون يا حضرات القضاة أن القوانين لا تعتبرنى بريئا فحسب ، وإنما هى تأمرنى وتفرض على أن اعمل على تحقيق هذه الترضية لنفسى .. وبقى أن تقرروا ما إذا كانت هذه القوانين سارية ، نافذة ، أو أنها لم تعد ذات مفعول !؟

« وإنى لأعتقد ان الباعث الذى يدعو الدول جميعا إلى سن القوانين هو أن تكون مرجعا نرجع إليه عندما نرتاب فى امر ، فنسترشد به إلى ما ينبغى علينا .. وعلى هذا ، فان القوانين هى التى تفرض على المنكوب — فى هذه الحالات — ان ينفذ العقوبة .. وإنى لأهيب بكم أن تثبتوا انكم تقرون هذه القوانين ، والا فانكم تتيحون للفجار فرصة الفرار من العقاب ، وتغرون لصوص الأموال على أن يزعموا انهم زناة، إدراكا بأنهم إذا انتحلوا هذا الغرض لتبرير دخولهم بيوت الناس ، فلن يمسهم سوء !

اثبات ان الجريمة لم تكن مدبرة

« الا انظروا يا حضرات القضاة مازعمه اهل ذلك الرجل من اننى كلفت الخادم بأن « تستدرجه » .. **اننى أعتقد انه كان من حقى ان انتهج اية وسيلة للايقاع بمن اغوى زوجتى ! .. ولو اننى اكتفيت بالكلام دون العمل لكنت من المخطئين .. والواقع ان الأمور كانت فى تلك الأثناء قد تطورت** إلى مدى بعيد ، حتى ان الماكر ولج دارى مرارا .. لذلك اعتقد اننى لم اتجاوز حقوقى ، مهما كانت الوسيلة التى إستعنت بها للقبض عليه .. ومع ذلك ، فثقوا أن زعم الاتهام اننى « دبرت » خطة الايقاع بغريمى تدبيرا سابقا ، إنما هو اتهام زائف ايضا .. وتستطيعون ان تلمسوا الدليل على ذلك فيما سارويه لكم .

« لقد قصصت عليكم كيف أننى التقيت بصديقى « سوستراتس » وهو عائد من الريف عند مغرب الشمس ، وكيف انه تناول عشاءه معى ، حتى إذا استراح وانتعش ، بادر إلى الانصراف .. فسلوا انفسكم اولا — ايها السادة : « لو اننى كنت قد رسمت فى تلك الليلة « خطة » لاستدراج « ايراتوستينس » والقضاء عليه عمدا — الم يكن من المستحسن ان ادع صديقى « سوستراتس » يتناول عشاءه فى اى مكان آخر ، بدلا من ان اصحبه إلى دارى واقدم له العشاء ؟ .. وليس من شك فى أن وجود ضيف فى الدار كان خليقا بان يثبط عزيمة « ايراتوستينس » ويجعله يحجم عن التسلل إلى البيت فى تلك الليلة !

« ثم .. اترونه كان محتملا — لو كنت اعرف ان « ايراتوستينس » قادم .. أن ادع ضيفى ينصرف ويخلفنى وحيدا ؟ .. اما كان من المعقول ان الحف عليه فى البقاء حتى يساعدنى فى انزال العقوبة بالفاجر ؟

« ومن ناحية اخرى ، الم يخطر لكم ايها السادة ، انه قد كان بوسعى ان ادعو أصدقائى فى أثناء النهار كى يجتمعوا فى منزل احد المعارف القاطنين على مقربة من دارى ، تسهيلا لإجراءات استدعائهم فى اللحظة المناسبة ، بدلا من ان انطلق فى الليل للبحث عنهم بعد اكتشاف امر تسلل الجانى إلى بيتى، دون أن اثق مما إذا كنت ساجدهم او لا اجدهم ؟! .. لقد وجدت أن بعضهم كان فعلا خارج المدينة ، (وما كان لى سابق علم بذلك) ، والبعض الآخر خارج دورهم — لا ادرى اين ! — ومن ثم اكتفيت بأولئك الذين قدر لى أن أجدهم .

« .. والمهم فى الأمر هو : الم يدر بخلدكم انه كان بوسعى — لو كنت اعرف مقدما بأن الفاجر سيلج دارى فى تلك الليلة — ان اوفد الخدم فى النهار إلى أصدقائى حتى اضمن لنفسى اقصى درجات السلامة .. إذ من ادرانى انه لم يكن مسلحا بخنجر او اى سلاح ؟ .. ثم ، الم يكن ذلك ادعى إلى ان اطمئن إلى اننى سانزل به القصاص امام اكبر عدد من الشهود ؟ . »

نفى وجود عداء بين القاتل والقتيل

ومرة أخرى ، دعا « يوفيليتس » شهوده فتقدموا ، واكدوا ما قراه الكاتب من اقوال ادلوا بها من قبل فى التحقيق

.. مثبتين أن المتهم طاف بهم فى الليل يدعوهم دون ما سابق انذار ..

وعاد المتهم يتابع دفاعه قائلا :

« لقد سمعتم أقوال الشهود يا حضرات القضاة .. والآن ، استعرضوا القضية فى اذهانكم ، وسائلوا انفسكم — هل هناك ما يوحى بأنه كان بينى وبين « ايراتوستينس » اى نوع من العداء يوما ما ، اللهم الا هذا العداء ! .. انكم لن تجدوا اى دليل ، فهو لم يتهمنى قط بشر ، ولا حاول أن يستصدر حكما بإقصائى عن البلاد ، ولا خاصمنى يوما فى قضية خاصة امام القضاء .. كذلك هو لم يكن يكتم جريمة أخشى افتضاحها ، حتى يمكن ان يؤول هذا بأنه حافز كاف على اغتياله .. لا ولا طمعت بما أقدمت عليه فى كسب شىء من المال ..

« الواقع انه لم يقم بينى وبينه يوما خصام ، لا ولا حتى شجار كذاك الذى يشتبك فيه الرجال إذا افرطوا فى الشراب .. بل إن عينى لم تقعا عليه قط قبل تلك الليلة ! فاى سبب كان يمكن أن يغرينى بالإقدام على تلك المخاطرة ، اللهم إلا تلك الآلام التى عانيتها على يديه ؟

« واخيرا .. او ترون من المعقول أن ادعو الناس ليشهدوا الجريمة ، فى حين انه كان بوسعى أن شئت ان ارتكبها دون أن يدرى احد او يشهد ؟ .. »

امحوا القوانين وعاقبوا الذائدين عن اعراضهم !

وإلى هنا ، كان « يوفيليتس » قد فرغ من تفنيد الاتهام ، فتحول يختتم مرافعته قائلا :

« **إننى أعتقد يا حضرات القضاة ان هذا العقاب لم ينفذ** لمصلحتى الخاصة ، وإنما هو لمصلحة المجتمع بأسره .. فان امثال هذا الوغد لو ادركوا ما يرتقبهم من قصاص عن جرائمهم لترددوا فى انتهاك حرمات سواهم .. وهم خليقون بأن يغدوا اكثر ترددا لو عرفوا أنكم ترون نفس هذا الراى ..

« والا .. فمن الأفضل ان تمحى القوانين القائمة وتسن غيرها لتنص على عقاب كل من يذودون عن زوجاتهم ، ولتضمن الحصانة لكل من يتعقبون الزوجات بالغواية ! .. وهذا إجراء افضل بكثير من أن تتخذ القوانين شركا للايقاع بالمواطنين ، فتستحث كل رجل على ان يفعل ما يشاء بكل داعر يضبطه فى خدر زوجته ، ثم تسمح — رغم ذلك — بتعريض الشخص المطعون فى شرفه وكرامته لمحاكمة تفوق فى خطورتها ما ينتظر ذلك الذى يدوس القانون ويفتن زوجات الغير !!

« اننى مثال لهذه الحالة .. فها انذا اقف مهددا بفقدان حياتى ، وثروتى ، وكل شىء .. لاننى أطعت قوانين الدولة ! »

وبهذا انتهت مرافعة المتهم عن نفسه ، وتعتبر هذه المرافعة — كما قدمنا — من أروع نماذج المرافعات الجنائية ، ومن خير ما كتب « ليسياس » .. فهو قد وثق من قوة موقف المتهم إلى درجة جعلته يحمله على ان يقول إنه لم يرتكب

جريمته تمشيا مع القوانين فحسب ، بل تمادى فجعله يقول انه بارتكابها إنما كان يطيع ما امرت به القوانين من قتل الزانى ! .. وفى هذا مغالطة — فى الواقع — لأن القوانين لم تصر على الثأر للعرض بهذه الطريقة .. فضلا عن أنها نصت على امكان قبول التعويض المالى فى هذه الحال .

على أن براعة كاتب المرافعة تبين اكثر وضوحا فى سياقتها ذاته ، فانه قد جعل المتهم يفصل قصته فى اسهاب ليبين كيف انه كان زوجا ككل الأزواج ، كريما ، رحيما ، يثق فى زوجته ولكنه لا يسلم لها الحبل على الغارب .. وكيف انه عاش طويلا فى غمرة الخداع دون ان يدرى ، على يدى داعر اعتاد اغواء النساء ..

وهكذا قصد من المرافعة تهيئة الأذهان حتى إذا بلغ المتهم فى قصته شرح الحادث الذى سفك فيه دم غريمه ، كان قد اكتسب عطف قضاته فلم يستنكروا اغتياله شخصا اعزل على مشهد من الملأ ، وبرغم ضراعاته وتوسلاته !

كذلك كانت المرافعة من القوة بحيث اظهرت ان الجريمة كانت قصاصا حقا ، لا خطة مدبرة مقصودة .. وهى اكثر قوة فى نهايتها إذ تحاول اقناع القضاة أنهم إذ يحكمون باخلاء سراح المتهم ، إنما يحققون الصالح العام ، ويعززون ما ينبغى من احترام لحرمات البيوت !

اهمال دور الزوجة وذنبها

على ان من اغرب المظاهر التى اكتنفت هذه المرافعة ، خلوها من اى شىء يتصل بدور الزوجة او مسلكها ، اكتفاء

بالنص على أن اتصال الفاجر بها إنما تم عن طريق الخادم ، وأن لقاءهما الأول تم فى مناسبة من المناسبات النادرة التى كان يباح فيها للمرأة الظهور أمام الملأ فى اثينا .. وهى مناسبة جنازة أحد الموتى !

ومما يلاحظ أيضا حرص الدفاع على وصف الزوجة بانها كانت «ضحية» للداعر ، فهو الذى «افسدها» و « اغواها »، ومع أنه من الواضح أنها كانت شريكة له فى الإثم ، إلا أن زوجها تنكب الإشارة إلى ذنبها ..

بقيت اسئلة ثلاثة تعن للقارىء فى خاتمة هذه المأساة ، وهى :

١ — هل تلام الخادمة على خيانتها لسيدتها ؟

والجواب : طبعا لا .. فقد كان مصيرها فى يد سيدها ، الذى كان يملك أن يعذبها بكافة وسائل التعذيب الجثمانى .. او يقتلها .. او يفعل بها ما يحلو له !

٢ — ما سر مغالاة الزوج فى الإشارة إلى متاعب صعود السلم الموصلة بين طابقى منزله ، وهبوطها ؟

والجواب ان السلم التى كانت شائعة فى بيوت اثينا القديمة هى السلم الخشبية البسيطة كالتى يتسلقها النقاشون الآن ليدهنوا الجدران .. ومن هنا يمكن تصور الخطر الذى تتعرض له امراة تحمل طفلا ، إذا هى أكثرت من الصعود والهبوط عليه ..

٣ ــ ما هو الحكم الذى صدر فى القضية فى النهاية ؟

والواقع انه وان خلت سجلات المحاكمة من ذكر الحكم الذى صدر فيها ، فان الدلائل كلها ترجح انه كان حكما ببراءة **المتهم ! .. لا سيما وقد كان الاثينيون يشمئزون** من الزنا كل الاشمئزاز ، ويعلقون اهمية كبرى على رابطة الدم ودورها **فى تقرير الوراثة ، وواجب الأبناء نحو رعاية قبور آبائهم واقامة شعائر العبادة على ارواحهم .. ومن هنا كانت تتخذ كل حيطة ممكنة لتأمين عفة المراة ، والزامها العزلة فى حياتها،** كما فى نظام « الحريم » فى الشرق !



ابشع جرائم الملك السفاح زير النساء « هنرى الثامن »
احد كتاب للمحقق الإنجليزى سير «باتريك هيستنجز »

الملكة فى القفص

ــ اسمك ؟

ــ « آن بولين » .

ــ سنك ؟

ــ ستة وعشرون سنة .

ــ لقبك ؟

ــ ملكة إنجلترا !

ــ اقسمى ان تتولى الحق ، والحق كله ، ولا شىء غير الحق !

... واقسمت .

ــ انت متهمة بانك وانت زوجة للملك هنرى الثامن قد ارتكبت جريمة الزنا مع كل من .... و .... و .... و .... و .... فما قولك ؟

وقبل ان نسمع جوابها ينبغى ان نعرف القصة من بدايتها ..

زير النساء

تعزى الشهرة العريضة التى لصقت باسم الملك هنرى الثامن فى التاريخ ــ والتى لا يستحقها فى الواقع ــ إلى سببين: اولهما ، شراهته الهائلة فى الطعام والنساء ، التى جعلته يتزوج ست مرات ، على التوالى ، بحيث استحق لقب « زير نساء » !.. والسبب الثانى لتلك الشهرة انتحاله لنفسه لقب « حامى الايمان » ، مع ان نظرة واحدة إلى سجلات المحاكمات

التى جرت خلال مدة حكمه ، والتى بلغت اوجها بمحاكمته المروعة لزوجته الملكة « آن بولين » ، تكفى لأن تنتزع من ذكراه كل استحقاق لشرف « حماية » الايمان ، بل كل استحقاق للشهرة وخلود الاسم ، ايا كان اساسها .. !

وللقب « حامى الايمان » هذا قصة طريفة .. فعلى اثر نفور هنرى الثامن من زوجته الأولى الفاضلة « كاترين اوف اراجون » أخذ يسعى لدى البابا كى يقضى بتطليقه منها ، فلما رفض البابا ــ سواء لأسباب دينية او سياسية ــ أن يجيبه إلى طلبه الظالم ، اكتشف هنرى فجأة انه هو ــ وليس البابا ــ الذى يستحق لقب حامى الايمان ، فأطلقه على نفسه !.. وعندما هدده البابا بحرمانه من رحمة الكنيسة اجابة فى وقاحة بما معناه : « فلتذهب إلى الشيطان ! » ثم اعلن انه إذا لم يوافق البابا على تطليقه فسيجد من يطلقه ، وسوف يتزوج من المراة التى راقت فى عينيه ، المدعوة « آن بولين » مهما كانت الأحوال !

ومضى الملك فى طريقه ، فطلق « كاترين » وتزوج من « آن بولين » فكان انتصاره على البابا كاملا ! .. وإذ ادهشته السهولة التى تم بها الأمر كله ، قرر أن لا يحتمل فى المستقبل اى تدخل أو عرقلة لرغباته من اى مصدر كان .. ومنذ ذلك اليوم ظهر على حقيقته ، كطاغية لا يرحم ، وسفاك متوحش ، وملك مجرد من كل شفقة او ضمير .. ولم يعد فى الدولة إنسان أعلى من ان يلحقه سخط الملك او ادنى من أن يحيق به خبثه .. !

عذراء ((كنت))

وكانت ضحيته الأولى فتاة تدعى « اليزابيث بارتون » أو عذراء « كنت» المقدسة كما اطلق عليها ! .. وكانت قد تنبأت بأن الملك إذا لم يعدل عن تطليقه لزوجته « كاترين » وزواجه من « آن بولين » فسوف يموت فى خلال شهر من اتمام الزواج ! .. وكانت هذه النبوءة التعسة اقسى من أن يتحملها الطاغية ، فأوصى برلمانه المطيع المتملق بأن يصدر من فوره تشريعا يقضى بمعاقبة « عذراء كنت » واعتقال جميع أصدقائها واتباعها ، كما يقضى باعتبار كل من يرفض الاعتراف علنا بأن الملك هنرى الثامن هو حامى الايمان ورئيس الكنيسة ، مرتكبا لجريمة الخيانة العظمى !.. ولكى يقنع الشعب بأن التشريع ليس « صوريا » عمد بمجرد زواجه إلى تطبيقه على اثنين من رعاياه فى وحشية مروعة تفوق كل وصف وتصديق !

كان أولهما اسقف روشستر ، الذى لم يكد يبدى ترددا فى الاعتراف للمك برئاسته الدينية حتى أمر هنرى بإلقائه فى السجن ومحاكمته ، ثم أوحى إلى الهيئة التى تولت هذه المحاكمة بأن تصدر عليه حكمها التالى : « قد حكمنا بأن تعلق من رقبتك فى حبل المشنقة ، على أن يرفع الحبل عن عنقك وانت ما تزال « نصف » حى ، ثم يفصل رأسك بالسيف ويقطع جسمك إلى اربعة اجزاء ! »

وقد نفذ الحكم فعلا فى ٢٢ يونية سنة ١٥٣٥ ..

ولكن تلا ذلك ما هو أمر وادهى .. فقد طالب الملك صديقه المقرب سير « توماس مور » — وكان يحظى بحب

الشعب الإنجليزى واحترام أوروبا بأسرها — بأن يعترف بلقبه الدينى الجديد .. فلم يمض على إعدام الأسقف، اسبوعان حتى وقف « سير توماس مور » فى قفص الاتهام ليحاكم بتهمة أحجامه عن النطق بعبارة الاعتراف التى طلبها الملك منه !

واعترف الرجل بجريمته ، فصدر الحكم بإعدامه ! .. ثم نفذ الحكم فعلا ففصل رأسه عن جسده وعلق ذلك الرأس — الذى امتلأ يوما بالحكمة وأوحى لصاحبه بتأليف كتابه الخالد « يوتوبيا ، أو الجزيرة المثالية » — الذى سنقدم للقراء فى عدد تال خلاصة شائقة له — فوق قنطرة لندن حتى شبعت منه انظار المارة جميعا .. وعندئذ القى فى نهر التيمس !

ذلكم كان الملك الذى أوقف — بعد عام واحد من الحوادث السالفة — زوجته الثانية الملكة « آن بولين » فى قفص الاتهام كى تحاكم بتهمة .. الزنا !

عشاق الملكة الخمسة !

ولكى يكون القارىء فكرة عن المهزلة التى انطوت عليها هذه المحاكمة ، نرجع به قليلا إلى الوراء ..

عندما فشل هنرى فى الحصول من البابا على قرار بتطليقه من زوجته الأولى «كاترين»، جمع فى يوم ٢٦ مايو سنة ١٥٣٣ اساقفة إنجلترا المطيعين المنافقين وحصل منهم على قرار مسبب بحيثيات مضحكة ، يقضى بأن زواج الملك من « كاترين » كان وما زال باطلا من أساسه ، ومن ثم فهو حر فى الزواج ممن يشاء !

وتزوج هنرى فعلا من « آن بولين » .. ولكن لم تنقض على هذا الزواج ثلاث سنوات حتى راقت فى عين هنرى امـراة اخرى تدعى « جين سيمور » فاراد الزواج منها !.. وكان لابد طبعا من إيجاد طريقة يتخلص بها أولا من زوجته التعسة .. وهنا لم يكن اسهل من أن تحرص إحدى وصيفات قصره على ارضاء مولاها فى مناسبة كهذه ، فتقـدمت إليه فجأة فى أول مايو سنة ١٥٣٦ تنبئه بأنها « سـمعت » من امراة تدعى « ليدى ونجفيلد » ان زوجته الملكة قد ارتكبت جريمة الزنا .. ومع أكثر من رجل !!

ولعل من دواعى السخرية أن ليدى ونجفيلد المذكـورة كانت قد ماتت قبل ذلك التاريخ ، لـكن الواشية زعمت ان الليدى صرحت قبل موتها باسماء « عشاق » الملكة ، ومنهم ثلاثة من موظفى القصر الملكى هم : « نوريس » و «ويستون» و « بريريتون » ، ثم عازف موسيقى من عازفى البلاط يدعى « مارك سميتون » .. اما الخليل الخامس للملكة فلم يكن سوى « شقيقها » اللورد روشفورد !

وفى اليوم نفسه الذى تلقى فيه الملك هذه الأنباء أمـر بمحاكمة الرجال الخمسة بتهمة الخيانة العظمى ، فقبض عليهم وزج بهم فى السجن .. ثم القى القبض على الملكة نفسها ، التى لم تعرف التهمة المنسوبة إليها إلا وهى فى الزورق الذى نقلت به إلى السجن « برج لندن » !.. وتجمع اقوال الشهود على انها احتجت من فورها فى اباء على هذه التهمة الشـائنة وانكرتها بشدة .. لكن احتجاجهـا وإنكارها ذهبـا أدراج

الرياح ، فقد اودعت إحدى زنزانات السجن وحيل بينها وبين مقابلة اى مدافع او مشير !

العاشق الذى اعترف !

وفى الوقت نفسه نشط اعوان الملك سعيا إلى الحصول من عشاق الملكة او من أحدهم على اعتراف يثبت ضدها التهمة أو يعززها على الأقل .. وفى سبيل انتزاع هـذا الاعتراف استخدمت مع المتهمين الخمسة شتى اساليب الاكراه والاغراء التى يستطيع الخيال تصورها ! .. وقد قرر أولهم « نوريس» فى هذا الصدد أن المحققين وعدوه باخلاء سـبيله نهائيا إذا اعترف بالذنب على نفسه وعلى « شريكته » الملكة ، فـكان جوابه القاطع انه يؤثر الموت على ان يعمد إلى هـذا الافتراء الزائف ، وابدى استعداده لأن يبارز اى إنسان ينسب إليه انه قد ارتكب مع الملكة ذلك الإثم الفظيع !

وإذ فشل المحققون على النحو نفسه مع ثلاثة آخرين من المتهمين ، لم يبق فى جعبتهم غـير أضـعف الجميع واوهنهم عزما : عازف الموسـيقى « فرانك سيمتون » .. فنجحوا فى الحصول منه على اعتراف بارتكاب جريمة الزنا مع الملكة !

وبطبيعة الحال لم تكن لهذا الاعتراف أية قيمة كدليل من أدلة الاثبات إلا فيما يتعلق بصاحبه وحده ، دون شريكته .. ورغم ذلك فقد استخدمت السلطات كل ما فى وسعها من حيلة لعدم تمكين الملكة من اسـتجواب المتهم المعترف او سـماع شهادته ! .. وكان السبيل إلى ابعاده « قانونيا » سليما فى مظهره ، فقد كان القانون يحرم على القضاء سـماع شهادة



لكن احتجاجها وانكارها ذهبا أدراج الرياح ، فقد أودعت احدى زنزانات السجن وحيل بينها وبين مقابلة اى مدافع أو مشير !..

المجرم « المحكوم عليه » ! .. ومن هنا قدم العشاق الخمسة إلى المحاكمة فى وستمنستر بتهمة الخيانة ، قبل مضى اثنى عشر يوما على سماع الملك بقصة خيانة زوجته !

ورغم عدم قيام ادنى دليل ضد بقية المتهمين الذين لم يعترفوا ، فقد حكمت المحكمة عليهم جميعا بالإعدام ، عقابا لهم على جريمة الزنا بالملكة ! .. وبصدور الحكم حرمت الملكة نهائيا من حق المطالبة بسماع شهادتهم أو مناقشة اعتراف المعترف منهم أثناء محاكمتها هى ، التى كان محددا لها ان تجرى بعد يومين .. وهكذا امست التعسة مجردة من كل حول او طول !

ولم يلبث أن نفذ فى العشاق الأربعة « غير المعترفين » حكم الاعدام بالفأس ، أما خامسهم الذى اعترف فقد أدركته « رأفة » الملك فأمر بإعدامه شنقا !

محاكمة الملكة

وفى الخامس عشر من مايو سنة ١٥٣٦ اقتيدت « آن بولين » من سجنها فى برج لندن إلى قاعة وستمنستر كى تحاكم .. وكانت الملكة يومئذ فى السادسة والعشرين ، اجهل ما تكون بالقانون وأساليب استخدامه للدفاع عن نفسها ! ومع ذلك فقد حيل بينها وبين الاستعانة بأى خبير فى القانون يوجه دفاعها — ولم يكن نظام المحامين بالمعنى المعروف اليوم قد وجد فى ذلك العصر — فوقفت فى قاعة المحكمة الفسيحة الرهيبة بمفردها ، وليس إلى جانبها صديق يشجعها أو مخلوق يعطف عليها ، فى مواجهة تسعة وعشرين من شيوخ المملكة

ونبلائها الذين كانت تتألف منهم هيئة المحكمة ، وعلى قرارهم يتوقف مصيرها ، وكان يرأسهم « الدوق اوف نورفولك » كبير القضاة ..

وقد اديرت جلسة المحاكمة فى البداية وفقا للقواعد القانونية المقررة ، بكل دقة وصرامة .. فتلى على المتهمة صاحبة الجلالة ــ لأول مرة ! ــ قرار الاتهام الموجه إليها ، والذى يتضمن تفصيلات التهمة .. ثم طلب إليها ان تقف فى مكانها وترفع يدها اليمنى فتقسم ثم تقرر : هل هى مذنبة ام بريئة ؟

وكان جوابها : انها بريئة :

ومنذ تلك اللحظة اختفت من قاعة المحكمة كل مظاهر وإجراءات المحاكمة العادلة .. فلم يقدم ممثل الاتهام اى دليل يعزز التهمة ضد المتهمة ، ولا اتى بواقعة محددة تحتاج منها إلى رد او تفنيد ، ولا نودى شاهد واحد تستطيع المتهمة مناقشته او سؤاله ! .. بل انها لم تستطع نفى رواية « ليدى ونجفيلد » الشاهدة الوحيدة ، المتوفاة ! .. او تفنيد أقوال عازف الموسيقى المعترف ، ولو فى غيابه ، بحكم القانون الذى يمنع المتهم من الدفاع عن نفسه فىالتهم الخطيرة بلسانه ! .. ولو حضر معها اثناء المحاكمة ابسط مدافع لتمسك على الأقل بأن القانون لا يسمح بإدانة متهم دون دليل ما ! ولكن من أين كان لها ذلك وقد منعت من ان تقول او تفعل شيئا قد يؤدى إلى تبرئتها ؟

الملكة تتوسل .. !

وعبثا ناشدت المسكينة قضاتها ، مؤكدة ان جميع الأفعال والأقوال المنسوبة إليها مكذوبة من اساسها ، وانها لم ترتكب اثما ! .. فقد أنصت رئيس القضاة إلى توسلاتها صامتا ! .. وكان مظهرها ورقة مسلكها وهى تستجدى القضاة حياتها مؤثرين للغاية ، بحيث خشى البعض أن تستميل إليها عواطف الشيوخ فينسوا «واجبهم» ويحكموا ببراءتها ! .. ولكن وجود رئيسهم اليقظ كان له من التأثير عليهم ما حال دون وقوع هذه « الكارثة » ! .. أو لعل القضاة التسعة والعشرين انفسهم لم تكن لهم الشجاعة الكافية كى يتحدوا ملكهم الطاغية ..!

ايا كانت الأسباب فقد صدر الحكم بالاجماع ، قاضيا بادنة المتهمة ، وإعدامها حرقا ! .. اللهم إلا إذا أخذت الملك الشفقة عليها فاستبدل بحكم الحرق .. الاعدام بالفاس !

ساعة التنفيذ !

وحدد لاعدام « آن بولين » اليوم السابع عشر من الشهر نفسه ــ اى بعد يومين فقط من المحاكمة !.. وفى صبيحة ذلك اليوم دخل على السجينة من « يبشرها » بأن الملك قد تعطف فسمح بانقاذها من عذاب الموت حرقا ، وإعدامها بدلا من ذلك بالفاس .. وان الحكم سينفذ فى عصر اليوم نفسه ! .. فلم تجب الملكة بغير هذه العبارة : « كنت اتمنى ان اموت قبل حلول هذا اليوم ، كى أنجو من آلامه .. »

لكن رحمة الملك الماجن اتسعت لتصرف آخر « كريم »، فقد امر بأن يستدعى لها خصيصا من مدينة « كاليه » بفرنسا جلاد اشتهر ببراعته فى الإجهاز على ضحاياه من اول ضربة !

فلما زفت إلى « آن بولين » هــذه « البشرى » أجابت ساخرة : « لكنى لا أملك غير رقبة نحيلة ! » .

واطاحت بالرقبة النحيلة اول ضربة من الجلاد !



محاكمة سير والتر رالى

الذكاء الذى أودى بصاحبه !

وراء كل محاكمة خالدة فى التاريخ قصة .. وكثيرا ما تنطوى هذه القصة على عواطف وطرائف لا تخطر ببال .. وقصة « سير وولتر رالى » دليل على ذلك . فقد كان « رالى » خليقا بان يعيش حياته مغامرا خامل الذكر ، وشاعرا مغمورا ، ومؤلفا غير معروف ، لولا أن الهمه ذكاؤه – يوما – أن يبسط عباءته على سطح بركة ماء ، لتتمكن الملكة « اليزابيث » الأولى من ان تخطو دون ان يمسها الماء الراكد .. وكانت هذه المجاملة البارعة سببا فى ان قربته اليزابيث منها ، وأنزلته مكانة لم تؤثر بها رجلا قبله ، وهى التى كانت تتشدق بانها « تزوجت العرش » ، فظلت عمرها بلا زواج !

ولقد رفعت هذه الحظوة « سير وولتر رالى » إلى ذروة الجاه والثراء ولكنها ملأت حياته بسلسلة من المتاعب والمصائب ، كانت الغيرة سببها الأول : غيرة الملكة عندما أقدم على الزواج ، وغيرة الحاسدين لما بلغه من مكانة .. ثم قدر له أن يدفع راسه ثمنا ، فى النهاية ! .. وكانت محاكمته – التى يقدمها لك « كتابى » فى هذا الفصل – من اغرب المحاكمات فى التاريخ !

حياة باهرة .. وموت « باهر » !

لعل ابرز الظواهر فى حياة « سير وولتر رالى » ، أنها كانت مليئة بالارتفاعات الشاهقة والانخفاضات السحيقة .. أو ما يمكن ان نسميه – تجاوزا – بـ « المطبات » الشديدة ! .. كانت حياة مفعمة بكل طريف ، إذ قدر لصاحبها ان يبدى من الحذق فى القبض على سيفه ، بقدر ما أبدى من الحذق فى القبض على قلمه .. فقد كان جنديا مظفرا ، وملاحا بارعا ، كما كان سياسيا قديرا ، وشاعرا مجيدا ، وروائيا مبدعا .. وكان مفطورا على حب المغامرة ، وعلى الجراة والاقدام ، كما كان وسيما ، مكتمل الرجولة . واكسبته هذه الميزات وتلك حظوة لدى الملكة اليزابيث لم ينلها قبله إنسان ، ولكنها – فى الوقت ذاته – كانت نقمة عليه ، إذ انتهت به إلى اتعس ميتة !

وكما بهرت حياة « وولتر رالى » المجتمع الإنجليزى ، فكذلك بهرته وفاته ، إذ جاءت نتيجة محاكمة من اغرب المحاكمات التى حملها الينا التاريخ .. محاكمة اسفرت عن الحكم عليه بالاعدام – بوصفه خائنا – دون ما قرينة تؤكد ذنبه ، ودون ما استناد إلا إلى ما لفقه له غرماؤه .. ولكن الملك جيمس – الذى خلف اليزابيث – عفا عنه ، واستبقاه سجينا فى « برج لندن » ، معتقل الأمراء وعلية القوم .. وفى هذا السجن قضى سير وولتر اثنتى عشرة سنة ، ثم اطلق سراحه فى ظروف لا تقل غرابة عن ظروف محاكمته .. اطلق سراحه لمجرد رغبة الملك فى ايفاده ليبحث له عن مورد للثروة !

ولكن الموت بسيف الجلاد كان يكمن له بالمرصاد ، إذ انتهى مصيره إلى تنفيذ الإعدام فيه ، لأنه اخفق فى العثور على الثروة التى كان ينشدها جيمس !

يتزوج دون إذن الملكة .. فيسجن وعروسه !

ولد « سير وولتر رالى » فى سنة ١٥٥٢ . ويبدو انه كان مفطورا على حب المغامرة ، وعلى الشغف بالسيف وبالعلم وبالقلم معا . فقد قضى سنوات وهو يحارب فى فرنسا — فاكتسب صيتا عريضا كجندى شهم — ثم تحول إلى دراسة القانون ، واخذ يقضى فراغه فى نظم الشعر . بيد انه لم يلبث أن ارتد إلى الجندية ، واشترك فى حروب دارت فى ايرلندا ، فابدى فيها من الشجاعة والإقدام ما اذاع صيته . وما إن بلغ الثلاثين ، حتى كان قد استقر فى لندن ، واتجه إلى السياسة فحالفه التوفيق فيها ، واستطاع ان يكتسب حظوة لدى الملكة اليزابيث الأولى .

وعلى الرغم مما كان يقال من ان اليزابيث وهبت نفسها لمنصبها ، و « تزوجت العرش » ، الا ان الشائعات كانت تتناثر عن غراميات لها .. وقيل إن باب الهوى هو الذى افضى « بسير وولتر رالى » إلى المكانة التى اكتسبها لديها ! وقد ساعد على تأكيد ذلك ، ما حدث حين اقدم الشاب على الزواج دون ان يستأذن الملكة ، بل دون ان يخبرها .. فقد اعلنت موقفها ازاء تصرفه هذا ، بأن زجت به وبعروسه فى سجن « برج لندن » !

وكانت هذه النقمة كفيلة بأن تقضى على الشاب المغامر ، لولا أن لان قلب اليزابيث له من جديد . وسجل التاريخ — إذ ذاك — أن « الحكمة » تفوقت على « الهوى » لدى « الملكة العذراء ! » ، فأفرجت عن الشاب من أجل الصالح العام .. فقد حدث ان قام فى (دار تسماوث) شغب خطير ، أثاره ملاحو البارجة « ديفون » ، احتجاجا على ما رأوه من غبن واقع عليهم عند توزيع الأسلاب التى كانوا قد غنموها من إحدى السفن البرتغالية الكبيرة .. وعندما اخفق المسئولون فى قمع الشغب — قبل أن ينقلب إلى ثورة جائحة — تذكروا أن ملاحى « ديفون » كانوا يتعلقون بسير وولتر رالى . ويكادون يعبدونه ، ومن ثم رأت الملكة أنه خير من يهدىء هياجهم .. وصح ما توقعت ، فاسترد المغامر الشاب مكانته وحظوته لدى اليزابيث !

يرحل إلى الدنيا الجديدة .. بحثا عن مدينة الذهب !

وتعتبر هذه الفترة أزهى فترات حياة « سير وولتر رالى » وقد عاد — خلالها — يخصص جزءا من وقته لتلك المغامرات التى اقترنت باسمه . ولعل أروعها ، واشبهها بالخيال ، هى تلك التى حملته إلى امريكا بحثا عن الذهب ! .. فقد تناهت إلى علمه اسطورة تزعم وجود مدينة مسحورة فى (جيانا) ، اطلق عليها البعض اسم (مانوا) ، واطلق عليها بعض آخر اسم (الدورادو) ، اى « الرجل المكسو بالذهب » ، نسبة إلى رجل كان يستحم بالذهب لفرط توفر هذا المعدن النفيس فى تلك المنطقة من الدنيا الجديدة !

ولقد ظلت هـذه الأسطورة تتردد فى خيـال المغـامر الجرىء ، حتى حمـلته فى سنة ١٥٩٥ — وقـد بلغ الثالثة والأربعين من عمره — إلى أن يقـود حملة إلى مصـب نهر (اورينوكو) بأمريكا ، بحثا عن المدينة المسحورة ! .. ومع أن الحملة باءت بالفشل ، إلا أنها دعمت الفكرة الخيالية فى ذهن « سير وولتر » وجعلت منها يقينا راسخا .. على أنها — من ناحية اخرى — ادت إلى اضمحلال نفوذه لدى الملـكة اليزابيث ، لاسيما وأنها كانت قد قربت إليها شخصا آخـر ، أوفر قوة وانضر شبابا ، هو « ايرل اسيكس » !

ومن ثم فقد اصمت اليزابيث اذنيها عن كل رجاء لوولتر رالى ، الذى كان حب المغامرة يكوى فؤاده ، ويقض راحته ، ولا يدع له فرصة للاستقرار .. وبلغ من انصراف اليزابيث عنه ، انها لم تصغ إلى ماراح ينذرها به من خطر اسـبانيا على بريطانيا !

يدمر الأسطول الأسبانى .. فتنقم عليه الملكة !!

على أن الذعر لم يلبث أن حمل اليزابيث على أن تعـير انذارات سير وولتر اذنا . فما إن علمت بأن الإسـبان كانوا يتأهبون بالفعل لغزو انجلترا ، حتى قفزت إلى ذهنها صور الأسـطول الأسـبانى العظيـم (الارمادا) ، فأذكت روح الصراع فى نفسها التى كانت الشـيخوخة قد دبت إليها .. ومن ثم قررت الملكة أن تسبق الأعداء إلى الهجوم ، فجهزت حملة كبيرة ضـدهم . ومع أن « سير وولتر رالى » كان بين قادتها ، إلا أنه لم يكن القائد الأول لها ، إذ عقدت الملكة لواء

القيادة لمنافسة ومزاحمة .. ايرل اسيكس ، اصغر من نعموا بالحظوة لديها !

وكان الهدف الأول للحملة هو تدمير الأسطول الاسبانى الذى كان قابعا فى (قادش) . ولكن القائد الشاب أبى الا ان يغزو المدينة برا ، فتولى «سير وولتر» مهاجمة الأسطول بحرا .. وبينما منى « ايرل اسيكس » بفشل ذريع ، ظفر « سير وولتر» بفوز باهر، يعتبر من اعظم ما احرزته البحريةالإنجليزية فى عهد «اليزابيث» . ولكن النحس ابى الا ان يشوه عظمة هذا الانتصار ، إذ أقدم الأسبان على حرق السفينة التى كانت محملة بالكنوز والأموال المدخرة لأسطولهم ، فلم يقدر للانجليز ان يظفروا بأسلاب أو غنائم . ومن ثم اعتبرت الحملة فاشلة، رغم انها دمـرت الأسـطول الاسـبانى . وتبلورت نقمة اليزابيث فى الغضب على « رالى » — وليس على القـائد الأول للحملة — ومن ثم لم يعد « سـير وولتر » إلى سـابق حظوته لدى مولاته !

القائد الفاشل يدس لمساعده .. « البطل » !

ولم يفت كل هذا فى روح المغامر الـدؤوب ، بل ظـل يسعى لدى الملكة حتى اقنعها بايفاد حملة بحرية جديدة ضد الأسبان ، إذ عاد ملك اسـبانيا — فى سـنة ١٥٩٧ — يبنى اسطولا جديدا لغزو إنجلترا . ومرة اخرى ، قدر لـ « وولتر رالى » ان يخرج فى حرب بحرية ، ولكنه فى هذه المرة ايضا — التى كانت المرة الأخيرة من نوعها كذلك — لم يكن القائـد

الاول ، بل كان مساعدا « لايرل اسيكس » الشاب المدلل لدى اليزابيث !

ومن جديد ، اخفق «اسيكس» فى كل خطة ومحاولة ، بينما ظفر « رالى » — شخصيا — بانتصارات مشرفة وإن لم تنقذ الحملة من الفشل ! .. وقابلت اليزابيث هذه النتيجة بثورة عارمة وسخط جائح .. ولكنها لم تصبهما على قائد الحملة ، وانما صبتهما على « رالى » المسكين ، بزعم انه كان الموحى بالمشروع كله ! .. ولم يكن مسلكها غريبا ، فقد راح «اسيكس» يوغر صدرها ضد الرجل الذى كان اثيرا قبله بالحظوة لديها .. لا سيما وقد كان فى نقمتها على « سير وولتر » اعفاء له — وهو المسئول الأول — من اللوم !

والمصائب — كما يقول المثل — لا تأتى فرادى ، إذ انضم إلى اسيكس فى الدس لسير وولتر رالى سياسى كان شديد الغيرة من هذا الأخير ، قويا فى عدائه له .. ذلك هو « روبرت سيسيل » ، الذى خلف اباه « لورد بيرجلى » ، كوزير للملكة !

البطل يصبح سفاحا .. فى نظر الملك الجديد !

على ان تقلب اليزابيث ، ودسائس اسيكس وسيسل ، لم تنل كثيرا من مكانة سير وولتر رالى فى الاوساط السياسية ، فظل قطبا من اقطابها ، وواصل الرسالة التى آلى على نفسه أن يؤديها .. رسالة التنبيه إلى خطر اسبانيا ، إذ كانت الغريمة الكبرى لانجلترا فى ذلك الحين .

ولم تجد هذه الدعوة فى الأوساط السياسية آذانا صاغية ، بل إن اثرها الوحيد تمثل فى اشتداد عداء « روبرت سيسيل » لوولتر رالى !

وما لبثت اليزابيث ان ماتت ، فخلفها « جيمس الأول » على عرش انجلترا . وإذا كانت اليزابيث قد اعتزت بشجاعة رجال جيشها وبحريتها ، فان جيمس كان — على النقيض منها — يكره رجال الحرب ، ويؤثر أن يكون مسالما . لذلك فلا عجب فى أن انقلبت بطولة سير وولتر رالى ، فى نظر الملك الجديد ، إلى قتل وسفك دماء ! .. وبقدر ما كان جيمس مسالما ، فانه كان سهل الانقياد للوشاة والدساسين ، ومن ثم فقد سهل على « روبرت سيسيل » ان يغريه على أن يحرم سير وولتر رالى من كل المراكز السامية التى كان يضطلع بها !

ولا بد ان اعداء « رالى » العديدين — الذين كانت الغيرة تنهش قلوبهم — قد ادركوا إذ ذاك ان عهد المجد والرخاء قد انقضى بالنسبة لغريمهم .. ولكن من المحقق ان احدا لم يخطر له ان النهاية قد تتخذ الشكل الذى اسفرت عنه الأحداث !

ففى سنة ١٦٠٣ ، اعتقل رالى بتهمة الخيانة العظمى !

اتهام « رالى » بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك !

وتكاد القرائن التاريخية تجمع على ان المدبر الاول لهذا الاتهام ، هو « روبرت سيسيل » ، الذى كان قد أصبح رئيسا لوزراء جيمس الأول !

وكان الاتهـام مؤلفا من شقين : الشـق الأول بنى على مؤامرة دبرها أثنان من قساوسـة الكنيسـة الـكاثوليكية الرومانية ، لم يؤتيا من الذكاء قسطا يؤهلهما للتآمر .. ومن المحقق ان رالى لم تكن له اية علاقة بهذه المؤامرة !

واما المؤامرة الثانية ، فقد دبرها « لورد كوبهـام » ــ الذى كان يحمل لقب « حارس الموانىء الخمس » ــ وقيـل إنها كانت تتضمن اغتيال الملك ! .. ولم يكن ثمـة ما ينم عن اية علاقة لرالى بالأمر ، سوى خطاب أرسله إلى «سيسيل» وذكر فيه انه كان يلتقى احيانا بلورد كوبهـام ، فاذا بهـذا الخطاب يوقظ قوى الخبث والدهاء لـدى رئيس الوزراء ، ويوحى إليه بحيلة طالما استخدمت لانتـزاع الاعترافات من المتهمين بالخيانة .. فقد عمد « سيسل » إلى ايغار صـدر كوبهام ، بأن زعم له ان « رالى » قد اتهمه بأنه المدبر الأصلى للمؤامرة ! .. واثار هذا الزعم حنق كوبهام ، فشاء أن يدفع الاتهام عن نفسه ــ فى سورة الغيظ ــ فاتهم رالى بأنه هو المحرض الأول ، والمدبر الوحيد للمؤامرة !

وإذ نمى هذا إلى « رالى » ، ادرك لفوره اهمية حمل اللورد كوبهام على ان يدلى بالحقيقة كاملة .. وكان «كوبهام» إذ ذاك سجينا فى « برج لندن » ، فى حين أن « رالى » لم يكن قد اعتقل بعد . ولم تكن ثمة وسيلة للاتصال بنزيل البرج ، ولكن ذكاء « رالى » الخارق أوحى إليه بان يلف رسالة حول ثمرة من ثمار الفاكهة يلقيها خلال نافذة سجن « كوبهام » ! .. وافلحت الحيلة ، وتلقى السجين رسـالة رالى التى ناشـده

ولكن ذكاء « رالى » الخارق اوحى اليه بان يلف رسالة حول ثمرة من ثمار الفاكهة يلقيها خلال نافذة سجن « كوبهام » !..

فيها ان يسحب الاتهام الكاذب الذى عزاه إليه ، وأن يجهر بالحقيقة فيما يتعلق بعلاقته بهذا الاتهام . فكتب كوبهام — ردا على ذلك — رسالة طويلة تحايل بدوره على ارسالها إلى رالى ، وقد أقر فيها بأن اتهامه إياه لم يكن ينطوى على كلمة حق واحدة ، وانما كان من وحى الغيظ والانفعال .. وذكر أنه نادم على ما بدر منه !

الخصم الذى رضى بأن يحاكم خصمه !

وما إن استحوذ رالى على هذا الاعتراف الذى كتبه كوبهام بخطه ، والذى فضح فيه سر اتهامه ، حتى احس بأن فى وسعه أن يواجه اعداءه فى قوة وثقة ... ولكن المغامر السياسى ، كان كذلك شاعرا .. والشعراء يهيمون فى الأحلام ، فلا يقدرون ما فطرت عليه بعض النفوس من شر ! .. بل إن احلام رالى قصرت عن أن تتصور مدى مرارة الحقد الذى انطوت عليه جوانح « سيسيل » نحوه ، ولا مدى كراهية الملك له .. الكراهية التى تولدت عن وشايات سيسيل ودسائسه !

لذلك كانت الصدمة قاسية على رالى عندما ألفى نفسه يعتقل ، ثم يقدم للمحاكمة أمام أربعة قضاة ، وعدد من المستشارين — كان اكثرهم ممن يكنون له أعنف العداء — وروبرت سيسيل نفسه ! .. وتولى النائب العام « كوك » عرض القضية فى براعة فائقة .. فان غياب القرائن الثابتة جعله يعمد إلى البلاغة والتلاعب بالالفاظ ، فراح ينعت المتهم بانه « خائن خبيث عريق فى الخيانة » .. وأنه « شخص

مقيت ، تكرهه إنجلترا كلها بسبب الخيانة الأفعوانية اللئيمة » !

وإلى هنا كان رالى لا يزال يحلق فى احلام الشعراء ، مطمئنا إلى الدليل المادى الذى حصل عليه من كوبهام ، فما لبث أن أبرز الرسالة التى سحب فيها كوبهام اعترافه ووصفه بمجافاة الحقيقة . ولكن « كوك » طعن فى قيمة هذا الدليل ، زاعما أن الرسالة انتزعت من كوبهام بالضغط وبوسائل غير شريفة ولا مشروعة ! والواقع أن الذين حضروا محاكمة رالى ، استطاعوا ان يتبينوا بجلاء أن ادانته كانت أمرا مقررا من قبل ، مهما تكن اسباب الدفاع التى يثيرها !

حكم بالاعدام .. يجلل القضاء الإنجليزى بالخزى !

وهذا ما حدث بالفعل . فبعد أن اتخذت المحاكمة مجراها — ذرا للرماد — قضى بادانته ، وحكم عليه بالإعدام ، وبأن تمزق جثته إربا ! .. ولعل أصدق وصف لهذه المحاكمة ، هو هذا الذى صدر عن احد القضاة الذين اشتركوا فيها ، إذ صرح قبيل موته — ارضاء لضميره — بهذه العبارة : « لم يجلل القضاء الانجليزى بالخزى قط كما جلل فى محاكمة السير وولتر رالى » !

على أن الحكم الذى صدر لم يكن خاتمة هذه المحاكمة العجيبة .. فقد رأى الملك جيمس — لسبب قد لا يتسنى معرفته او تبريره فى اى عصر — أن يعفو عن المسجونين السياسيين فى ذلك الوقت .. وأمر بايداع رالى سجن « برج لندن » بقية حياته !

ولعل الاعدام كان ارحم وافضل لرالى من هذا العفو .. فقد قدر له ان يقضى اثنتى عشرة سنة من عمره فى «زنزانات» البرج الرطبة الموبوءة ! .. وفى تلك الأعوام الاثنى عشر ، كتب رالى اعظم مؤلفاته : « تاريخ العالم » ! .. وظلت روحه الدؤوب على نشاطها — رغم السجن — فلم تكف عن العمل والابتكار ، بعد ان أبى الأمل فى استرداد حريته أن يتخلى عنه ، حتى فى احلك ساعاته !

السجين يلوح للملك بذهب أمريكا .. من سجنه !

وفى سجنه ، استطاع رالى ان يفكر بشىء من الواقعية ، فيدرك ما طبعت عليه نفس جيمس الأول من جشع ، ومن تقلب .. واوحى إليه تفكيره بأن يستغل هاتين الصفتين فى استرداد حريته ! .. وكانت فكرة المدينة المسحورة لا تزال راسخة فى ذهنه ، رغم كل ما مر به من محن ، فسعى حتى رفع إلى جيمس مشروعا التمس ان يسمح له بان ينفذه بنفسه .. ولم يكن ذلك المشروع سوى : البحث عن الذهب الذى ذكرت الأسطورة القديمة انه دفين على مقربة من نهر (اورينوكو) فى امريكا .. ولكى يضاعف من اغراء الملك على الموافقة ، تعهد فى مشروعه بأن يتولى الانفاق من جيبه الخاص على البعثة ، وبأن يكون الذهب الذى يعثر عليه من نصيب الملك وحده !

ولم يجد جيمس من اعتراض على المشروع ، سوى أن الحكومة الأسبانية لن تحجم عن أن تقاوم ما استطاعت أية محاولة لمغامر انجليزى فى السطو على منطقة كانت تعتبرها

من املاكها .. فقد كانت اسبانيا تفرض نفوذها — فى ذلك الحين — على امريكا الجنوبية !

على ان جيمس ما لبث ، بعد طول تردد ، أن قرر ان النفع المرتقب من وراء المشروع يفوق الأخطار التى كانت تحف به ، وانه لن يخسر شيئا من جراء المحاولة ، بل من المؤكد أن يفيد منها إذا هى كللت بالنجاح !

الملك يوافق .. والمغامر يبدأ مغامرته !

وفى مارس سنة ١٦١٦ ، اصدر الملك جيمس امرا بالسماح لوولتر رالى بأن يغادر « برج لندن » ، وبأن يرحل إلى الخارج تحت الحراسة ، على ان لا يعتبر هذا عفوا عنه أو اعفاء من العقوبة ، بل يظل رالى « خائنا مدانا » معرضا للقبض عليه فى اية لحظة ، واعادته إلى السجن !

ولعل رالى لم يكن ليطمع فى اكثر من ذلك ، فقد تقبل هذه الحرية المنتقصة ، وارتضى القيود التى احيطت بها .. وشرع فى المغامرة التى تعتبر اكثر مغامرات التاريخ غرابة !.. وكان إذ ذاك فى السادسة والستين من عمره ، ولكن هذه السن لم تقعد به عن اعداد وقيادة مشروع كان اقل ما يوصف به أن كل الاحتمالات التى تحيطه ليست فى صالح القائم به على الاطلاق !

واستطاع رالى ان يجد من الأصدقاء الباقين على الود من ساعدوه على تدبير مبلغ كاف من المال لمشروعه ، فشيد سفينة خاصة له ، وحشد أسطولا مؤلفا من اثنتى عشرة سفينة اخرى ، يعمل عليها ما يقرب من الف رجل .

ومن الطريف أن رالى اطلق على سفينته — سفينة القيادة — اسم « المصير » ، إذ كان مصيره معلقا بنتائج مغامرته !

المصائب .. فى ركاب الباحث عن الذهب !

وقد لا يكون من المهم هنا أن نورد فى اسهاب ذكر هذه المغامرة ، إذ يكفى — فى هذا الصدد — أن نذكر ان النحس قد حالفها منذ مطلعها .. فقد ابحر رالى واسطوله فى منتصف سنة ١٦١٧ ، فاذا بهم يلتقون بطائفة من معاكسات القدر ، كانت كافية لأن تحطم عزيمة اى رجل غير سير وولتر رالى .. فهو لم يكن منطلقا لأداء خدمة لمليكه فحسب ، وانما كان فى طريقه إلى اشباع هواية متغلغلة فى اعماقه — وهى المغامرة وركوب الأخطار — ولتحقيق فكرة احالها الزمن إلى عقيدة راسخة فى نفسه ، وهى فكرة العثور على ذهب «الدورادو» .. ثم إنه — فوق هذا وذاك — كان يدرك ان حريته واسترداد مكانته وكرامته متوقفان على هذه المغامرة !

وتوالت المصائب عليه : فقد أصيب بحمى كادت تورده حتفه . كما أن ملاحيه كانوا كثيرى التمرد ، وأثبت ضباطه انهم غير اهل لأن يثق بهم أو يعتمد عليهم .. حتى إذا بلغ نهر (اورينوكو) — فى النهاية — وجد نفسه مضطرا إلى ان يشتبك فى صراع مع الأسبان .. وكانما لم يكتف القدر بكل هذه الكوراث ، فأضاف إليها الوانا اخرى : إذ فشل رالى فى العثور على المنجم المنشود ، كما فقد ابنه الحبيب فى أثناء الحملة .. ثم توج الاخفاق كل صراع بينه وبين الأسبان وأهل المنطقة !

ولم يجد — فى النهاية — بدا من ان يقرر العودة إلى إنجلترا ، لا سيما وان ضباطه اخذوا يتخلون عنه ويهجرونه تباعا ، كما أن رجاله امعنوا فى التمرد عليه .

تنفيذ الاعدام .. بعد ١٥ سنة من صدور الحكم !

وفى منتصف سنة ١٦١٨ — أى بعد عامين من بدء الرحلة — تسللت الباخرة « المصير » **إلى ميناء (بلايموث) ، وحيدة ،** مهجورة .. وأقبل أصدقاء رالى وزوجته يستحثونه على الفرار إلى فرنسا ، لينجو من نقمة الملك جيمس . وهنا تتكشف ناحية جديدة من نفسية الرجل ، فقد أبى أن يختم حياته بعمل ينطوى على النكث بالوعد ، وعلى الجبن والغدر. بل رحل إلى لندن وهو بلا حول ولا نصير ، ورغم ما كان قد عرفه من أن جيمس وعد الأسبان براسه — راس رالى — استرضاء لهم ، وطلبا لمهادنتهم !

ولم يكن جيمس ليتحرج من تحقيق هذا الوعد ، بل كان كل ما شغله هو التفكير فى انسب الطرق لاعدام رالى ! .. وذهب فى الاهتمام بذلك إلى درجة تاليف لجنة سرية لدراسة الطريقة المناسبة ، ولابتكار أصلح الحجج والأسباب لتنفيذ الاعدام .. واستغرقت اللجنة فى هذه المهمة العجيبة ، ثم انتهت من دراساتها ومداولاتها ، إلى ان الحجة المثلى لاعدام رالى هى تنفيذ الحكم الذى صدر عليه منذ خمس عشرة سنة : عندما أدين بتهمة الخيانة العظمى !

ولعل العدالة لم تشهد — فى كافة عصور التـــاريخ — قضية كهــذه ، يدان فيهـــا المتهم بالخيـــانة العظمى فيقضى بأعدامه ، ثم يترك — فى الســـجن — أثنى عشر عاما ، بفرج عنه بعدها على امل ان يبحث لمولاه عن ثــروة .. حتى إذا اخفق فى العثور على الثروة المنشودة ، قطع رأسه !

ولقد ابدع القدر فى اخراج مشـــهد الإعدام ، بما يتلاءم مع حياة سير وولتر رالى ، إذ شاء ان يتم اعدامه فى يوم موكب عمدة لندن ، وهو يوم اعتـــاد فيه الناس ان يتدفقـــوا على العاصمة الانجليزية من كل فج .. وبذلك قدر لأكبر عدد من الناس ان يحضروا اعدام الرجل الـــذى بهرتهم اعمـــاله فى الحياة !



محاكمة الملك شارل الأول

الاغتيال .. أو التسميم .. أو المحاكمة ؟

فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٦٤٩ وقف الملك شارل الأول امام المحكمة الخاصة التى شكلت لمحاكمته فى « وستمنستر » ، متهما بتهمة الخيانة العظمى ، والتآمر على سلامة البلاد ، والاعتداء على سيادة الشعب !

وكان الملك قد اعتقل قبل ذلك التاريخ بنحو شهر فى قصر « كاريسبروك » بجزيرة « وايت » ، فان وجوده فى اية بقعة من ارض إنجلترا كان مصدر قلاقل وقلق مستمرين لقائد الجيش « كرومويل » واعوانه ..

وقد سبقت محاكمة الملك مناقشات متضاربة حول تقرير مصيره ، فكان الشعور العام يميل إلى الاعتقاد بأن النظام الجديد « لن يستطيع أن يتقدم خطوة نحو تحقيق أهدافه ، ما بقى الملك على قيد الحياة ! » .. ومن ثم كان من راى البعض ان يقتل الملك غيلة بدس السم له . تجنبا لاثارة الضجيج الذى يحدثه قتله بالمواجهة الصريحة والنية المعترف بها ..!

وفضل فريق آخر فكرة اغتيال الملك بالرصاص فى اية مناسبة أو فرصة سانحة ..

لكن اغلبية الآراء اتجهت إلى ترجيح كفة الاقتراح الثالث، الذى يقضى بأن « يمثل الملك امام محكمة قضائية علنية ، باعتباره مجرما آثما شريرا ، ليحاكم محاكمة تتفق مع شرف البرلمان وتلقن الملوك جميعا درسا لا ينسوه . هو انهم قابلون للعقاب على جرائمهم وآثامهم مثل بقية أفراد الشعب ! »

وقد اخذ بالراى الاخير ، فاصدر مجلس العموم فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٦٤٨ قرارا بتأليف لجنة خاصة تتولى اتخاذ الإجراءات الدستورية والقانونية الخاصة بتقديم الملك للمحاكمة ..

ولكن ، قبل ان اقص عليك قصة المحاكمة واطوارها . وتفصيلات تنفيذ الحكم فى الملك .. ينبغى أن الخص لك المقدمات البعيدة التى ادت إلى هذه النتيجة ، وانتهت بالملك إلى هذه النهاية المشئومة ..

واليك مقدمات هذه القصة .. أو قصة هذه المقدمات — وإنها بالفعل لقصة تجتمع فيها كل عناصر القصة المؤلفة ذات العقدة ، والحبكة ، والمفاجآت الشائقة .. ثم الخاتمة القوية !

حاشية السوء !

ولد شارل فى « دنفير ملاين » يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٦٠٠ . وكان ثانى ابناء الملك جيمس الأول واحبهم إليه .. فلما مات شقيقه الأكبر « هنرى » سنة ١٦١٢ ، صار شارل ولى العهد ، أو « البرنس أوف ويلز » .. وحين بلغ سن الرشد بدات سلطات القصر تفكر فى مصاهرة الأسرة المالكة الأسبانية بتزويج شارل من اميرتها . وكان ولى العهد قد اتخذ له صفيا من مستشارى السوء يدعى « دوق بكنجهام »، فاقنعه هذا بأن يتجاهل التقاليد ويقوم بزيارة شخصية لاسبانيا يتعرف فيها على الأميرة ! .. وهناك فى مدريد ارتكب شارل من الحماقات ما كشف النقاب عن ضعف خلقه

ونقائصه ، فقد بلغ من شغفه « العنيف » بالأميرة انه قفز ذات مرة من فوق سور حديقـة قصرها وهى تتنزه فيها ، بغية ان يحظى من فاتنته بالخلوة التى ابتها عليه التقاليد الأسبانية ! . بل ان شغفه بالأميرة جعله يقبل فى سبيل ارضائها وارضاء قومها أن يتلقى من البلاط الأسبانى الصفعة تلو الصفعة : فسمح بطرد حاشيته الدينية من البلاد ، واعادة بقية بطانته إلى انجلترا ، واستجاب لكل طلبات ، ونزوات ، و « دلال » المسئولين الأسبان .. بل لقد بلغ به الأمر ان وعد بما كان يعلم انه لا يملك تنفيذه ، مثل الغاء القوانين الجنائية التى تطبق ضد الكاثوليك فى انجلترا فى ظرف ثلاث سنوات ! (وكان العداء على اشده يومئذ بين السلطات الانجليزية « البروتستنتية » وبين الكاثوليك) .. واخيرا ، بعد ان امعن الأسبان فى اذلال ولى العهد البريطانى على هذه الصورة .. اعلنوا رفضهم النهائى للمصاهرة !

وصعرت بريطانيا خدها للصفعة !

وبعد عامين دبر مستشار السوء « بكنجهام » لولى العهد مصاهرة اخرى مع شقيقة ملك فرنسا ، الأميرة « هنريتا ماريا » .. وفى هذه المرة تم الزواج !

اول القصيدة .. كفر !

وفى مارس سنة ١٦٢٥ مات الملك جيمس فخلفه ابنه شارل على العرش .. وتوجس الشعب شرا من ارتقاء ولى العهد الذى صاهر « الكاثوليك » الفرنسيين عرش انجلترا « البروتستنتية » ! .. ثم لم تلبث أن بدت من الملك الجديد

تصرفات تنم عن روحه الاستبدادية واستهتاره بحقوق الشعب واحكام الدستور .. وقد بدأ الصراع بين البرلمان والملك حين اخذ الأسقف المدعو « مونتاجو » يدعو علانية لنظرية الحق الالهى للملوك ، فقرر البرلمان معاقبته بالسجن فى « برج لندن » ! .. كما اصر البرلمان على تقييد حق الملك فى فرض الضرائب والرسوم الجمركية بغير الرجوع إليه .. وإذ ذاك عمد شارل ــ بناء على مشورة صفيه البغيض « بكنجهام » ــ إلى حل البرلمان ، ثم النكاية فيه بتعيين الاسقف السجين « مونتاجو » اسقفا للقصر الملكى !

وغدا الملك العوبة فى يد مستشار السوء بكنجهام ، الذى كانت له مطامع حربية واسعة النطاق ، فورط مولاه وبلاده فى سلسلة من الحملات الحربية التى باءت كلها بالفشل ، فقد تمرد بحارة الأسطول فرفضوا محاربة « الهيجونوت » ، وفشلت الحملة البريطانية ضد « قادش » .. وازدادت حاجة الملك إلى مال ينفق منه على حروبه . فرهن جواهر التاج ! .. لكنه لم يحصل منها على غير مبلغ ضئيل بالقياس إلى المطلوب ، وإذ ذاك اضطر إلى دعوة البرلمان إلى الانعقاد ، كى يصدق له على الاعتمادات المالية اللازمة !

تبادل الصفعات !

لكن البرلمان الجديد لم يكن أقل « صلابة » من سابقه ! فاستهل مجلس اللوردات عهده باطلاق سراح « ايرل بريستول » ــ سفير بريطانيا السابق فى أسبانيا ــ الذى كان مسجونا بأمر الملك لانه جرؤ على تحدى بكنجهام وانتقد ميل

الملك الظاهر للكاثوليكية وخرقه للمعاهدة المبرمة حديثا مع اسبانيا دون مبرر سوى ارضاء نزوة طارئة من نزوات رجال حاشيته !

ولم يكتف مجلس العموم بهذه الصفعة التى وجهها شقيقه مجلس اللوردات إلى الملك ، بل اردفها بصفعة أخرى أشد واجرا ، حين وجه إلى بكنجهام استجوابا يتضمن ثمانية اتهامات متنوعة ، أجاب الملك عليها برسالة إلى البرلمان أعلن فيها فى غطرسة ان بكنجهام لم يتصرف إلا بتوجيه منه هو !.. ثم أعقب الملك هذه الرسالة بالقاء زعيم المجلس ومقدم الاستجواب — سير جون اليوت — فى السجن ! .. وانتهى اخيرا إلى حل البرلمان كله .. للمرة الثانية !

ولكن ماذا يصنع الملك فى أمر الاعتمادات المالية التى كانت تلزمه لمواصلة حروبه ؟ لجأ إلى الاستعاضة عنها « بقروض » اجبارية ، أو بالأحرى ضرائب تعسفية ، فرضها على الشعب .. وكانت عقوبة كل من يرفض دفعها ان يلقى به فى السجن ، إذا كان من الاشراف ، أو يجند فى الأسطول إذا كان من العامة ! .. ثم اختار بكنجهام ذلك الوقت غير المناسب للاشتباك فى حرب جديدة مع فرنسا ، قاد حملتها بنفسه .. فلما منيت البلاد فيها بالهزيمة المنكرة اضطر الملك — سنة ١٦٢٨ — إلى دعوة برلمان « ثالث » إلى الانعقاد لمواجهة الحالة !

لكن هذا البرلمان بدوره لم يكن على استعداد للتفريط فى حقوقه أو حقوق الشعب قيد انملة ، فبدأ عهده بإصدار

« عريضة الحقوق » ، التى نصت على عدم شرعية فرض القروض الاجبارية ، أو إعلان الأحكام العرفية فى زمن السلم ، أو أيواء جنود الدولة فى منازل الأفراد بالقوة كلما ضاقت بهم الثكنات (وهو إجراء كان شارل قد لجأ إليه !) .

وقد حاول الملك تفادى الموافقة على « عريضة الحقوق » هذه .. فلما شدد عليه البرلمان الخناق ، ووجه إلى بكنجهام قرارا باللوم والتوبيخ .. خضع الملك راغما ! ولو أن موافقته كانت كالعادة « رسمية » فقط ، ينقصها الإخلاص !

اغتيال مستشار الملك !

ثم توالت الأحداث الخطيرة .. فاغتيل بكنجهام « صفى الملك » بخنجر ضابط ثائر ! .. ومع ذلك لم يرجع شارل عن غيه أو يغير من سياسته ، فلجأ كعادته إلى حل البرلمان — لثالث مرة ! — ثم عمد إلى فرض غرامة مالية باهظة على زعمائه . وفى مقدمتهم « ايليوت » ، فلما عجز هذا عن دفعها زج به فى سجن « برج لندن » الرهيب ! .. وحين ساءت صحته وقدم — أكثر من مرة — ملتمسا بالافراج عنه بصفة وقتية حتى يسترد صحته ، أصر الملك فى كل مرة على الرفض .. وترك ايليوت حتى مات فى السجن !

ثم حكم شارل البلاد بغير برلمان احد عشر عاما — من مارس ١٦٢٩ إلى أبريل ١٦٤٠ — كان كل عام منها يزيد الشعب معرفة بخلق الملك الحقيقى ، وجهله سواء بدروس التاريخ أو بطبائع شعبه ! .. بل كان كل يوم من هذه المدة يزيد الشعب ايمانا بالحاجة إلى ضمانات اقوى تقف فى وجه

سلطان الملوك وطغيانهم .. وصار التاجر اللندنى — مثلا — الذى يقارن حكم شارل بأسوأ عهود سلاطين تركيا العتاة ، لا يعتبر ظالما او مغاليا ! فقد امعن الملك فى تحدى الشعب والاعتداء على حقوقه واستباحة حرماته ، إلى درجة الشذوذ والخبل — اللذين يذكران بتصرفات « الحاكم بأمر الله » ! — فمنع سكان الريف من زيارة العاصمة .. وامر بغلق جميع المتاجر فى حى « تشيبسايد » بلندن ، باستثناء حوانيت صياغ المجوهرات .. ومنع تشييد اى بناء جديد فى العاصمة إلا بتصريح خاص ، يدفع طالبه للملك مبلغا كبيرا من المال . كاتاوة ! .. وقد كان المال هو المطلب العاجل الذى يسعى إليه شارل ، وفى سبيله لم يدع وسيلة إلا اتبعها ، ولا جريرة إلا اقترفها .. حتى لقد عمد إلى منح بعض الشركات كافة حقوق الاحتكار المنافية للقانون ، مقابل دفع رشاو ضخمة . بل وفرض قانونا بمعاقبة كل من يهمل استعمال القاب الشرف والفروسية فى مخاطبته لأصحابها ، بغرامة قاسية للغاية .. ثم أحيا الضرائب على البضائع التى تنقلها جميع السفن .. إلى مئات اخرى من أمثلة هذا التحكم الاستبدادى المطلق !

اعدام صديق الملك !

بل ان شارل كان المسئول المباشر عن الكثير من « الجرائم » السياسية والفردية ، التى كان منها : تحريضه لصنيعته « ايرل سترافورد » على حكم ايرلندا بالحديد والنار ، واثارة الفرقة والأحقاد بين افراد شعبها إلى حد اقدامهم على مذابح مروعة .. ومصادرة اموال الناس لتهم

تافهة .. وتشجيعه لاضطهاد غلاة البروتستنت «المتطهرين» .. الخ

ثم أقدم الملك على حماقته الكبرى حين اجبر الأسكتلنديين على اتباع الطقوس الدينية الكاثوليكية ، المنافية لمذهبهم !.. فثارت ثائرتهم إلى حد اعلانهم الحرب عليه ، وتسيير جيشهم لمهاجمته (وكانت كل من إنجلترا واسكتلندة يومئذ شبه دولة منفصلة !) .. واسفر القتال عن هزيمة جيش شارل ، فاضطر إلى دعوة البرلمان — لرابع مرة — كى يعتمد ما يلزم من المال لاعداد جيش اكبر يواصل القتال .. لكن البرلمان بدا يناقش الملك الحساب عن كل ما اقترف ، فسارع شارل إلى حله ، كسابقيه .. ثم عاد بعد شهور فدعاه للمرة الخامسة، حين طالبته جيوش اسكتلندة الظافرة بتعويض مالى فادح عما كبدتها محاربته من أموال ! .. وإذ ذاك بدا البرلمان الجديد عهده بالالتفاف حول زعيمه الشعبى الجرىء القوى الشكيمة ، « بايم » . ثم وجه ضربته الأولى إلى صنيعة الملك وعنوان الفساد « ايرل سترافورد » ، فحاكمه واصدر حكمه عليه بالاعدام !

وحاول الملك فى البداية حماية رجله ، فلما تحرج الموقف ضحى به وتركه يلقى جزاءه ! ..ثم وافق مضطرا على مرسوم يمنعه من حل البرلمان بغير موافقة البرلمان ذاته ! .. وهكذا جرد الملك من سلاحه الأعظم ، وبدات حملة برلمانية ضخمة لتطهير البلاد من المفاسد والمظالم التى نشرها الملك فى شتى مرافقها .. وتساقطت حصون الفساد حصن بعد آخر

.. نتعرضت حياة الزعيم « بايم » للخطر المحدق ، إذ لم يجد الملك واعوانه بدا من التآمر على حياته ، بأحط الأسلحة وابشعها .. فبذلوا محاولة لإصابته بعدوى الطاعون عن طريق ارسال جرثومته إليه داخل خطاب ! .. لكن الذى فتح الخطاب كان احد سكرتيريه ، فنجا الزعيم .. ومرة اخرى حاولوا اغتياله اثناء وجوده فى قاعة وستمنستر بطعنة خنجر ، لكنهم اخطئوه فطعنوا شخصا آخر بدلا منه !

مذابح الحرس الحديدى !

ومع ذلك لم يتراجع بايم وصحبه الأطهار عن صلابتهم قيد شعرة .. فاستمر الصراع بين البرلمان والملك يزداد كل يوم حدة ، وعمد شارل إلى زيادة النار اشتعالا حين امر رجاله باطلاق النار على الجماهير فى إحدى المظاهرات .. ثم احاط نفسه بحرس من المغامرين المسلحين وأباح لهم الاشتباك مع المتظاهرين العزل فى « مذابح » وحشية !

وفشل شارل فى « شراء » ذمة بايم باسناد الوزارة إليه، فقد رفضها هذا باباء .. واخيرا لم يجد الملك مفرا من « إعلان الحرب » على البرلمان ، فأمر النائب العام ذات صباح بالقاء القبض على بايم واربعة من زملائه بتهمة الخيانة العظمى . على اساس « مسلكهم البرلمانى الشاذ » .. لكن البرلمان رفض تسليمهم ! .. فما كان من الملك الا ان اتجه إلى دار المجلس فى موكب من نحو ثلاثمائة او اربعمائة من اعوانه وحراسه المسلحين بالمسدسات والسيوف والخناجر وواجه الاعضاء فى جراة مطالبا بتسليم « الخونة » الخمسة ! ..

لكن المجلس رفض طلبه ، فى جراة مماثلة ، فاضطر الملك إلى الانسحاب مهددا متوعدا باقذع الألفاظ والسباب !

وكان رد الشعب على هذا التصرف رائعا عظيما ، فقد اغلقت متاجر العاصمة احتجاجا ، وقوبل الملك اثناء مروره فى المدينة فى اليوم التالى بصيحات التنديد والاستنكار ... وغلى مرجل الشعور العام .. واضطر البرلمان إلى الانتقال لعقد جلساته فى غير مقره ، خشية بطش الملك .. وتألفت العصابات المسلحة فى طول البلاد وعرضها ، وتقاطر اهل الريف على العاصمة بأسلحتهم .. وبات نشوب الحرب الأهلية مرتقبا بين لحظة واخرى .. !

وهنا تراجع الملك ، فاعتكف فى احد قصوره خارج العاصمة — ايذانا بالتقهقر عن موقفه — فخرج زعماء البرلمان الخمسة من مخبئهم ، وعادوا إلى مجسلهم ظافرين . بين تهليل الشعب وحماسته !

لكن الصراع بين السلطتين لم يكن يهدأ إلا ليثور، او يوتنى إلا ليستأنف .. فلما تقدم البرلمان إلى الملك بعريضة « الاقتراحات التسعة عشر » لتعديل الدستور وتجريد الملك من كل سلطة فعلية ، لجا الملك إلى القوة فاطلق جيشه ليهاجم المتظاهرين المؤيدين للبرلمان .. فاعتمد البرلمان ميزانية لتسليح جيش « حر » من انصار الحرية قوامه ١٠ آلاف رجل (بينما الف الملك بدوره برلمانا « حرا » فى مقر قيادته باكسفورد !) .. وبذلك بدات الحرب الأهلية بين الجيشين !

الملك يطلب تدخل الدول الأجنبية !

واستمر القتال سجالا أكثر من عامين ، تكبد كلا الفريقين خلالهما خسائر فادحة .. وفى العام الثالث (١٦٤٥) تغلبت كفة «جيش الحرية » . ثم احرز انتصاره الحاسم بزعامة « كرومويل » . فى معركة (نازبى) .. فبدأ يملى شروطه على معسكر الملك ! وفى هذه الأثناء فتشت مكاتب الملك فعثر بين اوراقه الخاصة على وثائق تثبت عليه تهمة مطالبته دولا اجنبية بالتدخل واستعداء جيوشها ضد بلاده ، فنشرت على الملأ وثائق هذه الخيانة العظمى ! .. وإذ ذاك ضاقت بالملك السبل وادركه اليأس ، ففر — فى مايو سنة ١٦٤٦ — إلى حيث سلم نفسه لأعدائه الأسكتلنديين .. مفضلا جحيمهم على جنة البرلمانيين الإنجليز ! لكن الأسكتلنديين باعوه ، فى يناير سنة ١٦٤٧ ، إلى البرلمان الإنجليزى .. نظير مبلغ من المال ! .. وبعد ستة اشهر نقل شارل من يد البرلمان إلى يد الجيش ، فأنزله فى قصره المعروف باسم «هامبتون كورت» وعامله بكل احترام ورعاية .. ثم بدأ كرومويل واعوانه يفاوضونه للوصول إلى سلم عادل بالنسبة للطرفين ، وعرضوا عليه شروطا أسخى مما كان يستحق !

لكن الغبى الأحمق لم يتعظ من الأحداث ، فراح يماطل ويساوم ، آملا ان يخف الأسكتلنديون إلى نجدته .. بل إنه فى إحدى جلسات المفاوضة رفض شروط الجيش فى عجرفة واحتقار !

ومنذ تلك الساعة اقتنع الجميع باستحالة الوصول معه

إلى تفاهم .. ورجحت كفة القائلين بأن مصلحة الوطن تقتضى ان لا تغفر جريمة الخيانة العظمى لأحد ، وبخاصة إذا كان ملكا !

واحس شارل بالتيارات التى تتجاذب مصيره . وخشى على نفسه من الاغتيال ، ففر من قصره تحت جنح الظلام إلى جزيرة « وايت » ! وهناك دخل فى مفاوضات مع الأسكتلنديين واستطاع اقناعهم بأن يعدوا جيشا لمؤازرته ومحاربة كرومويل ! .. ولكن قبل ان يتحقق حلمه وقع من جديد فى قبضة سلطات البرلمان ، التى بلغ من تسامحها أنها عرضت عليه عروضا جديدة للصلح . لكن غروره واعتماده على نجدة الأسكتلنديين الموعودة ، جعلاه يرفض عروض البرلمان فى قحة وصلف ! .. وعندئذ نفد صبر رجال الجيش فأخذوه فى قبضتهم مرة اخرى ، ونقلوه من الجزيرة إلى قصر هيرست ، ثم إلى قصر وندسور ، فقصر سان جيمس .. تمهيدا لمحاكمته !

نعم ، فلقد استقر رأى الجيش على محاكمة الملك شارل ، كى يلقى جزاء جرائمه وعدوانه على حقوق الشعب .. فلما اعترض فريق من اعضاء مجلس العموم المرجعيين المترددين على هذه « السابقة الخطيرة » ، ضرب كرومويل ضربته لتطهير البرلمان من دعاة الهزيمة هؤلاء ، ففصل منهم مائة واربعين عضوا بجرة قلم .. ولم يبق إلا على فريق المتحمسين للمحاكمة ، الذين اصدروا قرارهم بتشكيل « محكمة عليا » لهذا الغرض من نحو خمسة وستين من اعضاء البرلمان ورجال الجيش وسواهم .

وحين ابى مجلس اللوردات الموافقة على هذا القرار ، اصدر مجلس العموم فى ٤ يناير ١٦٤٩ قرارا تكميليا بأن اى حكم يصدره المجلس تكون له قوة القانون ، ولو لم يوافق عليه مجلس اللوردات او يصدق عليه الملك !

وبعد يومين انتخبت هيئة المحكمة برئاسة « مستر جون برادشو » وعضوية عدد كبير من المحلفين وضباط الجيش ، فى مقدمتهم القائد « اوليفر كرومويل » نفسه .

جلسات المحاكمة !

وفى يوم ٢٠ يناير اقتيد الملك فى حراسة « الكولونيل ثوملنسون » إلى القاعة الكبرى بقصر وستمنستر ، حيث تقرر ان تجرى المحاكمة .. واخذ رئيس المحكمة واعضاؤها اماكنهم فى صدر القاعة ، وقد وضعت امامهم منضدة مغطاة ببساط تركى ثمين ، وعليها السيف والصولجان ، اللذان يرمزان لهيبة العدالة .. وحرص المسئولون على ترك ابواب القاعة مفتوحة لأى متفرج ، طيلة جلسات المحاكمة ..

ثم افتتح الرئيس الجلسة الأولى بأن وقف وقال مخاطبا المتهم ، الذى جلس جلسة توحى بعدم الاحترام لهيئة المحكمة محتفظا بقبعته على رأسه ! : « شارل ستيوارت ، ملك إنجلترا .. إن مجلس العموم البريطانى ، وقد احس احساسا عميقا بالكوارث التى حاقت بهذا الشعب ، والتى يقع وزرها الرئيسى عليك ، قد قرر تحقيق تبعتها الدموية ومحاكمتك من اجلها .. »

ثم وقف المدعى العام « مستر كوك » وقال مخاطبا الرئيس : « سيدى اللورد ، انى مكلف بأن اتهم شارل ستيوارت ملك انجلترا ، بالتهم التى سيتلوها كاتب الجلسة على مسامعكم » .. ثم نهض الكاتب فتلا قرار الاتهام ، ولم يبد الملك ادنى اهتمام بما يتلى .. إلا عند العبارة الأخيرة من القرار التى جاء فيها : « لذلك نتهم شارل ستيوارت بانه طاغية وقاتل » فقد اطلق الملك عندئذ ضحكة سخرية عالية ! .. ثم خاطب الرئيس المتهم بقوله : « سيدى ، لقد سمعت الآن التهمة الموجهة إليك .. فما هو جوابك عليها ؟ »

وعندئذ أجاب الملك هذا الجواب الذى بدا انه قد اعده من قبل بعناية : « إنى أريد أن اعرف اولا باية سلطة استدعيتمونى إلى هنا ، وبعد ذلك اجيبكم على سؤالكم ! » فأجابه الرئيس : « نحن نستجوبك باسم شعب انجلترا الذى انتخبك ملكا عليه » .. وكأنما استفزت هذه العبارة المتهم ، فانبرى يقول : « ان انجلترا لم تكن يوما تنتخب ملكها ، وإنما هى دولة ملكية « وراثية » منذ اكثر من الف عام ، فاجيبونى باية سلطة تستجوبوننى ! » .. وإذ ذاك اجابه الرئيس فى حزم : « سيدى ، إن لهجتك توحى بانك تستجوب المحكمة ، وهو وضع مقلوب ! فاذا لم تجب فسوف تعرف المحكمة كيف تواصل إجراءاتها ، وسيأخذك الذين احضروك ، ليتولوا امرك فى هذه الاثناء » .. ثم اقتيد الملك إلى خارج القاعة ، وفى الطريق إلى السجن هتفت فئة قليلة « حفظ الله الملك » ، بينما هتفت الأكثرية بحياة « العدالة » !

الملك لا يخطىء !

وفى صباح الاثنين ٢٢ يناير — بعد يومين — عقدت المحكمة جلستها الثانية ، وأحضر الملك امامها مرة اخرى .. فأعاد الرئيس مطالبته بابداء اقواله ، واصر هو على رفض الاعتراف بسلطة المحكمة فى محاكمته ، وسؤالها عمن منحها هذا الحق ! ثم دار بين الاثنين الحوار التالى :

الملك : ان الملك بحكم القانون لا يخطىء .. وقد اوصى الله فى التوراة بطاعة الرعية لملوكها !

الرئيس : ليس للمتهم أن يناقش المحكمة الحساب !

الملك : لست متهما عاديا .. ومنذ متى كان مجلس العموم محكمة قضائية ؟

الرئيس : أيها الجاويش ، اخرج المتهم خارجا ..

واجلت الجلسة لليوم التالى ، وفى الجلسة الثالثة وقف المدعى العام يقول للمحكمة إن الملك يعبث بها ، ثم استدار يخاطب المتهم : « انى اطالبك بأن تجيب جوابا قاطعا صريحا على التهم الموجهة إليك ، فالعدالة لا تقيم وزنا للأشخاص . والآن عليك ان تجيب : هل ارتكبت هذه الخيانات التى تتهم بها ، ام لم ترتكبها ؟ .. ورغم تنبيه المحكمة للملك بانه إذا لم يدل بجواب صريح فسوف تعتبره ممتنعا عن الإجابة وتصدر حكمها على هذا الأساس .. فان الملك المتغطرس اصر على سؤال المحكمة عن سلطتها فى محاكمته !

وازاء ذلك رفعت الجلسة لتعقد المحكمة فى اليومين التاليين — ٢٤ و ٢٥ يناير — جلسات سرية سمعت فيها اقوال الشهود ، وبينهم عدد كبير من الجنود فى جيش كرومويل ، وقد شهدوا بأن الملك كان يلازم جيشه فى جميع المعارك التى قاتل فيها جيش البرلمان .. اى انه قد ارتكب جريمة الاشتراك فى القتال ضد أفراد شعبه ورعيته !

الحكم .. !

وفى يوم السبت ٢٧ يناير عقدت المحكمة جلستها الأخيرة — العلنية — فهتفت الجماهير عند دخول الملك إلى القاعة : « الاعدام .. العدالة .. الاعدام ! » ثم وقف الرئيس فألقى خطابا طويلا اتهم فيه الملك بارتكاب جميع الجرائم الواردة فى قرار الاتهام . وحين حاول الملك مقاطعته أجابه الرئيس : « دعنى أواصل الكلام فقد فاتت الآن فرصتك ! » .. لكن الملك اصر على اعتبار أن مجلس العموم — بغير مجلس اللوردات — لا يملك سلطة محاكمته !

وكان مصير هذا الاعتراض : التجاهل التام ! .. وحين فرغ الرئيس من خطابه أمر بأن يتلو الكاتب نص الحكم الذى أصدرته المحكمة ، وقد جاء فى ختامه : « من اجل كل هذه الجرائم والخيانات ترى المحكمة أن المتهم « شارل ستيوارت » طاغية ، خائن ، قاتل ، وعدو للشعب .. وقد حكمت عليه بأن يعدم بفصل راسه عن جسده ! » .. وهنا صاح الملك : « سيدى ، اسمح لى بكلمة .. » فأجابه الرئيس : « سيدى ،

ليس من حقك ان تتكلم بعد صدور الحكم .. يا رجال الحرس، خذوا سجينكم ! »

واثناء اقتياد الملك إلى عربة السجن قابله الجمهور بمظهر عدائى صارخ ، حتى لقد بصق البعض فى وجهه ، ووجهوا إليه اهانات شتى ! .. وفى السجن عومل بعد ذلك دون أدنى احترام او شفقة ، وبعد يومين أحضر اولاده إلى السجن ليودعوا اباهم الوداع الأخير .. وكان اللقاء والوداع مفجعين!

تنفيذ الاعدام

وفى اليوم التالى — ٣٠ يناير — اوقظ الملك فى سجنه قبيل الفجر ، فارتدى ثيابه بمنتهى العناية ، بل وطالب بتدفئة قميصه على وهج النار خشية ان يرتجف حين يصدمه الهواء البارد فى الخارج فيحسبه المتفرجون خائفا ! .. وفى الساعة العاشرة اخذوه إلى « هوايتهول » ومنها عبر الدهليز الطويل إلى قاعة مجلس الوزراء حيث شرب كاسا من الخمر الفرنسية المعتقة .. ثم قاده حارسه الكولونيل ثوملنسون ووراءه فرقة من الحرس خلال الحديقة بخطوات بطيئة ، وكان الملك يوصيهم بالاسراع فى السير قائلا إنه الآن يتقدمهم سعيا فى سبيل الظفر بالتاج السماوى ! .. وحين بلغ الموكب نهاية الحديقة صعد الملك السلم المؤدية إلى قاعة الاعدام .. وهناك فوجئوا بعائق غير متوقع ، فقد قيل لهم إنه لم يتم بعد اعداد جهاز الاعدام (وهو كتلة ضخمة اشبه بجذع الشجرة أو «السنديان» توضع عليها رقبة المتهم .. ثم يهوى الجلاد عليها بفأسه !) .

وقضى الملك فترة الانتظار فى التحدث إلى اسقف لندن ،

وفى الصلاة . ثم قال للكولونيل هاكر رئيس الحرس : «اوصهم بأن لا يسببوا لى ألما ! » .. والتفت إلى الجلاد يسأله : « هل يضايقك شعرى الطويل فى مهمتك ؟ » وعندئذ اشترك الجلاد والأسقف فى تنحية شعر الملك عن عنقه وجمعه داخل القبعة ! وفى تلك اللحظة سمع الملك يهمس لأحد الواقفين « تذكر ! » .. وقد أثار غموض المعنى المقصود بهذه الكلمة تساؤل الكثيرين يومئذ ، وفيما بعد ، ولكن اغلب الظن انه كان يرمى بها إلى تذكير محدثه بوعده أن يوصى ابن الملك حين يكبر ان يعفو عن الجلاد الذى أعدم والده !

ثم التفت الملك إلى الجلاد واستحثه على الاسراع فى اعداد الجهاز ، ثم قال له : « حين امد يدى هكذا ، اضرب ضربتك » ، فلما وضع رقبته على آلة الاعدام قال للجلاد : « انتظر الاشارة » .. وبعد لحظات مد الملك يده بالاشارة المتفق عليها .. فأهوى الجلاد بفأسه على عنقه ، ففصل راسه عن جسده بضربة واحدة !

وقدم البعض يومئذ التماسا كى يدفن الملك فى كنيسة الملك هنرى السابع ، لكن الفكرة رفضت بدعوى ان الجثة لا تكون هناك فى مأمن من ايدى العابثين ، فى مثل تلك الأيام الحافلة بالقلاقل .. ومن ثم دفنت جثة الملك — يوم ٨ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدامه بأسبوع كامل — فى كنيسة « سان جورج » الملكية بقصر وندسور .



شخصية الملك شارل

وهكذا دخل الملك شارل الأول ذمة التاريخ .. وإذا سئل التاريخ اليوم عن شخصية شارل ، وما له وما عليه ، لما خرج جوابه عن هذه الحقائق : إنه ــ كرجل ــ كان حريصا على اتباع أوامر الدين ، ومراعاة اللياقة والصرامة فى مايتصل بالسلوك والأخلاق ، وكان ذواقة للأدب والفنون .. أما كملك ، فقد كان محروما من الحكمة والدهاء المطلوبين فى الملوك .. وكان شديد الاعتداد « بحقه الالهى » فى أن يحكم شعبه على هواه ، الأمر الذى اوقفه موقف المعارض العنيد للتيار القوى الذى اجتاح البلاد فى عصره ، والذى تمخض عن : حركة « الاصلاح » .. ونزعة « المتطهرين » إلى التزام الفضائل فى حياتهم العامة والخاصة .. ثم اعلاء كلمة الدستور وتقرير السيادة العليا له فى حكم البلاد ، بصفة نهائية .. !

دفع ثمن أخطاء زوجته !

لو أن « لويس السادس عشر » نزل عند رغبات الشعب الفرنسى ، ووضع ثقته فى زعماء الجمعية التشريعية ، وراض نفسه على أن يكفر عن مساوىء الملكية .. المساوىء التى استفحلت فى عهد جده وسلفه «لويس الخامس عشر» .. لو أنه فعل ذلك ، لوجد من شعبه استعدادا للعطف .. ولكنه كان يعيش فى بلاط فاسد ، فاجر ، اعمت مباذله عينيه عن الحقائق .. وكان ضعيفا ، اسلس قياده لزوجته « مارى انطوانيت » التى استمرات التدخل فى شئون الحكم بروح المرأة المعتدة بنفسها ، المزهوة بسلطانها ، الغرة القليلة التجربة .. وكانت مشورتها سبب نكوص « لويس » عن التفاهم مع الجمعية التشريعية .. وكان نصحها حافزه على الاتصال بملوك اوربا ، طالبا منهم الحماية والنجدة ، مستعديا اياهم على فرنسا وشعبها !

واستفحل موقف الملك سوءا ، حتى اقتنع بأن لا سبيل له إلا الفرار .. وفشلت محاولة الفرار ، فكان ذلك حافزا للجمهوريين على مضاعفة جهودهم فى السعى لخلع الملك .. ومع أن مسعاهم لم ينجح لتوه ، إلا ان مركز الملكية كان قد تداعى فعلا ، واصبح الملك واسرته عرضة للاهانات والتحقير .. وتكرر هجوم الشعب الثائر على قصر « التويلرى » ، حتى اضطر « لويس » واسرته إلى اللجوء إلى حماية الجمعية التشريعية ، وانتهى بهم المطاف إلى سجن « التامبل » فى ١٣ اغسطس سنة ١٧٩٢ .

واشتد ساعد الجمهوريين بعد مذابح سبتمبر — التى قضوا فيها على أنصار الملكية المنهارة — فلم يأت ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ حتى اعلن « المؤتمر الوطنى » عزل « لويس السادس عشر » عن العرش .. واعقبه فى اليوم التالى باعلان الجمهورية !

المتطرفون يفضلون قتل الملك بغير محاكمة

ومع ذلك ، فان انصار الملك لم يكفوا طيلة الوقت عن تدبير الخطط والمؤامرات لتمكينه من الفرار .. ولم يتحول هو عن مجاراتهم، مما ادى إلى تشديد الحراسة عليه وعلى اسرته .. وإلى انبعاث الدعوة إلى محاكمته ! واستندت الدعوة إلى أن إبقاءه سجينا يبقى على الأمل فى نفوس معاونيه والملكيين الذين هاجروا إلى الخارج ، مما يساعد على المضى فى تدبير المؤامرات .. ولو انه نفى ، لمكنه الانطلاق فى الخارج من أن يجمع صفوف أنصاره ، وأن يستمد العون من ملوك أوربا !

وكان قتله هو الحل الصائب الذى خلص إليه الجمهوريون المتطرفون .. ولكن المعتدلين ابوا أن يدمغوا الثورة بوصمة تلطخ صفحتها ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى محاكمة الملك .. وأثارت الدعوة نقاشا فقهيا حادا بين المعتدلين والمتطرفين .. إذ قال الأولون إن دستور ١٧٩١ — أول ثمار الثورة — نص على حصانة ذات الملك ، ومن ثم فاذا خان الملك امته او تآمر مع العدو على سلامتها جاز خلعه وحسب .. وهذا ما تحقق فعلا ..

وقال الفريق الثانى : إن الأمة مصدر السلطات ، وارادتها هى الدستور النافذ .. وان حصانة ذات الملك لا تظل قائمة إذا لجأ الملك إلى الأعمال السرية والتآمر مع الأعداء ضد سلامة الوطن .. وان الملك الذى يخون ثقة بلاده ، ويضحى بمصالحها ، ويستعدى الأجانب عليها ، ويستعين بأعدائها على غزوها ، لا يجب ان يكتفى بعزله وتركه طليقا ، والا تابع مكائده ولم يرعو ، اطمئنانا إلى ... « حصانته » !

وإذ طال الجدال ، قفز « روبسبيير » إلى المنبر ، ليصيح صيحته الخالدة : « ما لنا والمحاكمة .. انكم لستم قضاة ككل القضاة ، ولا هذا المجلس بمحكمة ككل المحاكم ، ولا « لويس كابيه » بمتهم ككل المتهمين .. ولن تكونوا ابدا سوى ساسة دعوا لا لمحاكمة رجل والحكم عليه او له ، ولكنكم تدعون إلى اتخاذ إجراء قومى فى سبيل السلامة العامة ، ودرء الخطر عن الوطن .. فمن شاء منكم ان يتنحى عن هذه المهمة السامية ، وينكر حق وطنه عليه . فليرفع راسه لنراه » !

وكان « روبسبيير » يخشى ان يؤدى اى ابطاء إلى انعاش نشاط الملكيين ، ومن ثم صرخ فى زملائه : « يجب ان يموت لويس، ليعيش الوطن » !

ترجيح كفة المحاكمة ..

وانتهى الجدل إلى تقرير محاكمة « لويس السادس عشر » أمام المؤتمر الوطنى ، على ان تحدد الاتهامات التى توجه إليه، ويسمح له بالدفاع عن نفسه والاستعانة بمحامين ، ثم يصدر المؤتمر حكمه بالتصويت العلنى .

وفى العاشر من ديسمبر ، قرىء على المؤتمر تقرير الاتهام، المبين لجرائم « لويس كابيه » ، فتقررت دعوته للمثول امام المؤتمر فى اليوم التالى ..

وتسربت الأنباء إلى الأسرة المالكة السجينة ، فخيم عليها وجوم ثقيل كئيب فى باكورة يوم ١١ ديسمبر ، ولقى الملك وزوجته واخته عنتا فى كتمان مشاعرهم عندما اجتمعوا حول مائدة الفطور بمراى من حراسهم ، واكتفوا بالنظرات يتبادلون بها حديثا حزينا صامتا .. حتى إذا كانت الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح ــ وكان الملك قد عاد إلى الجناح الذى خصص له ، وجلس يلعب مع ولى عهده ــ اقبل اثنان من الحراس ، فانتزعا ولى العهد منه وحملاه إلى امه .. وسالهما « لويس » عن الداعى لذلك ، فاكتفيا بأن اجابا بانهما ينفذان اوامر صدرت اليهما !

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ، اقبل « شامبون » ــ حاكم باريس ــ فقرأ عليه قرار دعوته إلى المثول امام المؤتمر الوطنى لمحاكمته .. ولم يبد « لويس » أى انفعال او ارتياع ، وكانما اراد ان يؤكد ثباته فتغافل عن خطورة الموقف، ليتشبث بمسائل تافهة .. كاحتجاجه مثلا بأن الأمر لم يكن يستدعى ان يحرمه الحراس من ابنه قبل وصول الحاكم بامد طويل ، وبانه لا يدعى « لويس كابيه » وان كان « كابيه » اسم احد اجداده ..

مثول الملك أمام محكمة المؤتمر الوطنى

ولبى « لويس » دعوة المؤتمر فورا . فاستقل عربة حاكم المدينة — فى رفقة الحاكم وقائد الحرس الأهلى — وانطلقت العربة يحيط بها الفرسان والجنود المجهزون بالمدافع ، تحت المطر الذى اخذ يتساقط فى تلك الأثناء .. حتى إذا بلغت مقصدها اقتاد « سانتير » — رئيس الحرس — الملك المتهم إلى المكان الذى اعد له ..

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر .. وبدا « لويس » شاحب الوجه ، شديد الهزال ، حتى لقد تهدلت ملابسه على جسده .. وما إن اتخذ مجلسه ، بدعوة من رئيس الجلسة ، حتى تلى عليه قرار الاتهام .. وكان اهم ما تضمنه :

■ أنه رفض التصديق على وثيقة حقوق الإنسان وعلى الدستور .

■ انه نكث بما عاهد الأمة عليه .

■ انه تآمر مع بعض النواب — ومنهم « ميرابو » — على احباط الثورة والتنكيل برجالها .. وعمد فى سبيل ذلك إلى رشوة عدد من النواب !

■ انه حاول الفرار من فرنسا ليدبر العدة لغزوها بجيوش اجنبية .

■ انه كان على اتصال وتراسل مع رؤساء الدول الأجنبية

والأمراء الذين فروا إلى الخارج ، يتآمر وإياهم على الاعتداء على سلامة الدولة ونظام الحكم الذى أقرته ..

■ انه عمل على اراقة دم الشعب فى مذابح ١٠ اغسطس ..

وكان كلما تلى اتهام، سئل عنه فانكره او القى المسئولية على وزرائه ، أو تعلل بما كان الدستور القديم يتيحه له من سلطات ..

وسئل : لماذا حاصرت الجمعية الوطنية بالجنود فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ وسعيت إلى املاء قوانين معينة على الأمة ؟

فاجاب : لم تكن ثمة قوانين عملت على فرضها .. ولقد امرت الجنود بالتحرك ولكننى لم ابغ اراقة الدم ..

يشتهى لقمة خبز !

وكان « جامان » — الحداد الذى كان يستعين به فى ممارسة هوايته لأعمال الحدادة — قد ارشد وزير الداخلية ، فى ١٠ اغسطس ، إلى درج حديدى سرى صنعه الملك واخفاه فى جدار حجرته الخاصة بقصر « التويلرى » ، بعد ان اودع فيه الخطابات التى تشى بما كان يدبره مع النواب المناصرين له وبعض رجال الدين ، وبما كان يقدم من رشوة لمؤيديه فى الجمعية الوطنية .. فعرضت عليه هذه الوثائق ، ولكنه انكرها فى اصرار أحدث أثرا سيئا على أعضاء المؤتمر ..

وسئل بعد ذلك عما إذا كان لديه ما يقوله فاجاب بأنه يرجو موافاته بنسخة من قرار الاتهام ، وبان تعين هيئة للدفاع عنه ..

واخرج من القاعة ريثما تداول الأعضاء ، فى مناقشة عاصفة ، ثم انتهوا إلى تقرير السماح له بحق الاستعانة بمحامين للدفاع يختارهم بنفسه ..

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة .. وسال الحاكم « لويس » عما إذا كان يحب أن يتناول طعاما أو شرابا ، فرفض .. ولكنه بعد لحظة رأى « شوميت » — نائب حكومة العاصمة — يلتهم قطعة من الخبز ، فاقترب منه ، وتمتم له ببضع كلمات ، صاح « شوميت » على اثرها :

— اسأل ما تريد بصوت مرتفع يا سيدى ..

— إنما اسالك قطعة من خبزك !

— حبا وكرامة .. إنه غذاء متقشف ، فاقتطع لنفسك نصيبا ، ولو كان معى غموس لأعطيتك نصفه !

وفى طريق العودة ، راح الملك يقضم الطبقة الخارجية من قطعة الخبز .. وكان لب الرغيف صلبا — على ما يبدو — إذ لم يلبث « شوميت » أن القى ما تبقى معه من العربة ، فقال له الملك :

— لا يحسن إلقاء الخبز هكذا ، لا سيما فى الأوقات التى يعز فيها وجوده .

فسأله شوميت : « ومن ادراك انه نادر ؟ »

— لأننى اشعر بمذاق التراب فى القطعة التى آكلها ..

وسرح « شوميت » ببصره من نافذة العربة لحظة ، ثم قال :

— كانت جدتى لا تنفك تقول لى : « لا تفرط فى لقمة من الخبز ايها الولد الصغير ، فلست تدرى ماذا يكون فى غدك ! »

— يبدو لى يا مسيو « شوميت » أن جدتك كانت امرأة راجحة العقل ..

منع الملك من رؤية اسرته !

ووصل الملك إلى سجنه فى منتصف الساعة السابعة ، وقد تملكه الهم والاعياء .. ومع ذلك فقد طلب فور وصوله أن يرى افراد اسرته ، ولكن الأوامر كانت قد صدرت دون ذلك ، فاحتج على هذه الأوامر فى إلحاح .. حتى إذا تهيأ للنوم فى ذلك المساء ، قال لـ «كليرى» — الذى كان قائما على خدمته فى السجن :

— لقد شرد فكرى عن تدبر كل الأسئلة التى القيت على — فى غمرة الذهول الذى اعترانى — حتى اننى انكرت خط يدى !

وكأنما اراحه هذا الاعتراف ، فنام نوما عميقا ..

الملك يكتب وصيته !

وقع اختيار الملك على اثنين من خيرة المحامين هما « تارجيه » و « ترونشيه » .. ولكن أولهما تعلل بمرضه واعتزاله العمل ، فتطوع « لاموانيون دومالزيرب » — وكان وزيرا سابقا فى الثانية والسبعين من عمره — بأن يحل محله ، مع انه كان قد اعتزل الحياة العملية وركن إلى عزلة فى الريف

يقضى أيامه فى دراســات فلســفية .. وكان مرح النفس ، شديد الدهاء ، طيب القلب ، كما أنه كان من كبار المتبحرين فى القانون ، ومع أن الملك حاول أن يصده شاكرا ، قائلا له إن تضحيته هذه : « سوف تعرض حياتك للخطر ، دون ان تنقذ حياتى ! » إلا انه اصر مع ذلك على تطوعه .. واختار الملك إلى جانب هذين المحاميين محاميا نابها من الشــبان اســمه « ريمون دوسيز » .

واعتاد المحامون الثلاثة ان يجتمعوا بالملك حول مائدة كبيرة فى سجنه ، فيتدارسون الاتهامات ويتدبرون اســلوب الدفاع .. واعد « دوسيز » مرافعة خطابية قوية ، روع لها « ترونشيه » فاشار عليه بتعديلها قائلا : « أو تريد ان نقتال جميعا فى المحكمة ؟ »

وفى اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر اخطر «دوسيز» المؤتمر بأنه قد اعد مرافعته ، فحدد له اليوم التالى لالقائها .. وفى تلك الليلة ، عمد الملك إلى كتابة وصيته فى اسلوب مؤثر ، متواضع: « اوصى ابنى ـ إذا قدر له نكد الحظ ان يغدو ملكا ـ بأن يحرص على ان يكرس حياته بأسرها لسعادة مواطنيه ، وبأن ينسى كل سخيمة وكل ضغينة ، وان يصفح عن كل من ساهم فى الاساءات والاحــزان التى حاقت بى » .. حتى إذا فرغ من كتابة الوصية التفت إلى (مالزيرب) قائلا : « لقــد دبرت أمورى التافهة ، فليفعلوا بى الآن كيفما شاءوا .. » .

مرافعة الدفاع ..

وقدر لليوم السادس والعشرين من شــهر ديسمبر ان يحتل مكانا بارزا من تاريخ فرنسا ــ بل من تاريخ الملكية فى العالم ــ إذ فيه مثل « لويس السادس عشر » امام المؤتمر ، محوطا بمحاكميه ، وحاكم باريس ، وقائد الحرس الأهلى ..

وقال « فيرمون » ــ رئيس اللجنة ــ يخاطبه : « لقــد قرر المؤتمر يا لويس أن يستمع إلى دفاعك اليوم، دون تأجيل» .. ثم نهض « دوسيز » فبدأ يلقى مرافعته فى لهجة متئــدة وصوت مهيب ، وقضى ساعتين وهو يضرب على نغمة مسئولية الوزراء وحصانة الملك ، والحضور ينصتون فى صمت شــامل .. فقد شاء المؤتمر أن يكفل للمحاكمة طابع القضاء وقدسية حق المتهم فى الدفاع عن نفسـه ، حتى أن أحدا من الأعضاء لم يشأ أن يقاطع « دوسيز » حين عنف فى تفنيده للاتهامات ، وفى مهاجمته لأعضاء المجلس ، فصاح فى وجوههم : « اننى افتقد فيكم قضاة فلا اجد إلا خصوما » .. حتى إذا انتهى من دحض الاتهامات ، قال : « أيها المواطنون .. اننى اترك لكم الكلمة الأخيرة ، واشــهد التاريخ عليكم ، فاذكروا انه سيحكم على قضائكم .. ولسوف يكون حكمه حكم القرون » !

وسئل « لويس » إن كان لديه ما يقول ، فوقف يقرأ كلمة مكتوبة ــ لعل محاميه أعدها له من قبل ! ــ اكد فيها انه لم يبغ أن يريق دماء الشعب ، وانه غير مسئول عن مذابح ١٠ اغسطس ــ (يوم هاجم الثوار قصر « التويلرى » واضطر الملك إلى ان يلجأ إلى حمى الجمعية التشريعية) ــ ثم اختتمها

قائلا : « اننى إذ اخاطبكم — وربما للمرة الأخيرة — اعلن لكم ان ضميرى لا يؤنبنى البتة ، وان محامى لم يقولوا الا الحق »

وساد القاعة صمت رهيب .. وسمح للويس بأن يعود إلى سجنه .. وما إن غادر المكان ، حتى قامت مناقشة عاصفة اشاعت الهرج والصخب فى المؤتمر : إذ نهض «دوهيم» يطالب باصدار الحكم فورا ، فاذا بعض الذين تأثروا بالمرافعة ، وبعض الذى بقوا على ولاء للملك ، وفريق ممن توهموا فى انفسهم المثالية ، يحاولون الطعن فى المحاكمة ، وفى حق المؤتمر فى أن يتولاها .. وانقلب الأعضاء يتبادلون الاتهامات ، ويرمى بعضهم بعضا بالخيانة والظلم !

من المجرم : الملك ام الشعب

ودام الهياج ساعة ، ثم انتهى إلى تقرير الاستمرار فى نظر القضية .. حتى إذا كان اليوم التالى ، عاد الجدال أشد مما كان .. وحمل « سان جوست » على المدافعين عن لويس السادس عشر ، ثم ختم حملته صائحا :

« ايها المواطنون .. ما ينبغى ان يغركم اليوم ما يبديه طاغية الأمس من تواضع .. ثم ، فيم هذاالجدال الطويل وقد قضت الأمة فى الأمر ؟ .. لقد اعلنتم حربا على طغاة العالم ، افتراكم تبغون بعد ذلك انقاذ طاغيتكم ؟ .. ليس امامكم إلا ان تختاروا احد امرين : إما أن الشعب على حق والملك مذنب ، وإما ان الملك برىء والشعب هو المجرم ! »

وحاول « الجيرونديون » — انصار الملك — ان يجدوا

ثغرة جديدة ، فطالبوا بالاحتكام إلى الشعب ، وإذ ذاك صاح « روبسبيير » : « احملوا القرار إلى اربعة واربعين الف محكمة ، إن شئتم ، فان هذا كفيل بأن يجعل كل دائرة حلبة للنزاع والخلاف ، وربما ميدانا للقتال .. إن الجمهورية معرضة للهلاك » !

واستمر النقاش حتى اليوم الثلاثين من ديسمبر ، حين اقبل على قاعة الاجتماع موكب من ارامل ويتامى ضحايا يوم ١٠ أغسطس ، يطالبون بالانتقام ! .. فلما كان اليوم التالى، عمد دعاة الاحتكام إلى الشعب ، إلى ارهاب المؤتمر بالزعم ان اعدام الملك كفيل بأن يؤلب دول أوربا على فرنسا ، وان يثير صراعا دمويا طويلا لن يصيب فرنسا الا بالضرر ، حتى إذا كانت هى الظافرة فيه .. وصاح « فيرينيو » فى معارضيه: « ثقوا أن فرنسا لن تكون فى غمرة الانتصارات الا كتلك الآثار الشهيرة التى غالبت الزمن فى مصر .. فان الغريب الذى يمر بها يذهل لروعتها وجلالها ، ولو انه نفذ إلى جوفها ، فماذا ترونه واجدا ؟ .. مومياوات جامدة ، وصمت القبور .. ! ».

عشرة أيام .. لاصدار الحكم

وانتهى الخلاف فى ٤ يناير سنة ١٧٩٣ بأن قرر المؤتمر وضع ثلاثة اسئلة تؤخذ آراء الأعضاء بشأنها بعد عشرة أيام .. وصيغت الأسئلة كما يلى :

١ — هل يدان « لويس » بتهمة التآمر على حرية الامة والاعتداء على السلامة العامة للدولة ؟

٢ — هل يعرض الحكم — كيفما كان — على الشعب ليصدق عليه ؟

٣ — ما هى العقوبة التى يقضى بها ؟

واجتمع المؤتمر فى ١٤ يناير ، ففتح باب النقاش حول السؤال الأول ، وإذا بجدال صاخب ، عقيم ، ارتفعت فيه الأصوات يخالطها الضجيج المتسرب من الشارع .. وانقلبت قاعة الاجتماع إلى حلبة لتقاذف الاتهامات والسباب .. وحمل انصار الملك على المطالبين بإعدامه ،طاعنين فى حياتهم الخاصة وسيرتهم الشخصية ! .. بينما امعن هؤلاء فى اتهام « لويس السادس عشر » بالخيانة العظمى ، قائلين إن « الملك » غدا رمزا للدنيا القديمة التى دال عهدها ، وإنه آخر عقبة فى سبيل تحقيق الدولة المثالية ..

ثم تحول الجدل إلى نسبة الأغلبية المطلوب توفرها لنفاذ الحكم ، فطالب البعض بأن تكون الثلثين — كما فى المحاكم الجنائية — وطالب آخرون بأن تكون النصف زائدا واحدا .. وقد أقر المؤتمر هذا الرأى الأخير ، فأخذت الأصوات على أساسه بصدد السؤال الأول ، وإذا ٦٨٣ — من ٧٤٩ — يصوتون بالايجاب .. فأعلن « فيرينيو » النتيجة قائلا :

« باسم الشعب الفرنسى يعلن المؤتمر الوطنى ان لويس كابيه مذنب ، أدين بخيانة حرية الأمة والاعتداء على السلامة العامة للدولة » .

وفى اليوم التالى ، اخذت الاصوات عن السؤال الثانى ،

فرفضت فكرة استفتاء الشعب فى الحكم بأغلبية ٤٢٤ صوتا ضد ٢٨٣ صوتا ، وامتنع حوالى ٤٠ عن الإدلاء بأصواتهم ..

أما السؤال الثالث ، فقد عرض فى ١٦ يناير فى جو مكفهر ، إذ سادت حمى الانفعال باريس بأسرها فى الليلة السابقة ، وراجت الاشاعات ، وسارت المظاهرات ، واعلنت حالة الطوارىء حين اقبلت الجموع على مبنى المؤتمر ..

الحكم !

وبدأ الأعضاء يتوافدون واحدا بعد الآخر منذ الساعة الثامنة من المساء .. ونوديت الأسماء ، فاذا الأغلبية تقضى باعدام « لويس » ! .. ورأى البعض أن ينفذ الحكم خلال أربع وعشرين ساعة .. بينما طالب البعض بفتح باب المناقشة فى وقف التنفيذ .. ورأى فريق ثالث أن يكون الاعدام مشروطا بوقوع أى غزو أجنبى على فرنسا .. ولكن الأغلبية المطلقة لم تدع مجالا لأى شرط أو وقف للتنفيذ !

وحدث خلال التصويت أن تقدم وزير الخارجية فقرأ على المؤتمر خطابا من سفير اسبانيا يعرض فيه وساطة « مولاه الملك » بين المؤتمر الوطنى ولويس السادس عشر ، فرفض الأعضاء فى اباء أن ينظروا فى هذه الرسالة ، وصاح «دانتون» فى غضب : « ماذا يبغى هذا الرجل منا ؟ .. لا شأن لنا به ولا بمولاه .. إذا كنا نقتل لويس السادس عشر ، فنحن بالأحرى لا نقبل أن نطيع ملك اسبانيا ! » .

محاولة ارجاء التنفيذ ..

ورفض المؤتمر أن يستمع إلى محامى الملك الذين التمسوا أن يؤذن لهم بالكلام قبل اعلان نتيجة التصويت .. فلما اعلنت النتيجة قدموا خطابا من الملك يؤكد فيه براءته ويطلب الاحتكام إلى الأمة .. ورفض المؤتمر هذا الطلب ، كما رفض السماح باستئناف الحكم ..

على أن المحامين ظلوا يتعلقون ببقية من الأمل ، تمثلت فى محاولة ارجاء تنفيذ الحكم .. فلما عرض الأمر على المؤتمر فى ١٨ يناير ، صاح « روبسبير » : « ماذا ؟ .. أتصدرون الحكم بموت المذنب ، ثم تريدون أن تطيلوا عذابه ؟ .. لا .. لقد كنتم تسعون دائما لانقاذه ، وهذه محاولة أخرى لكم .. »

وطال النقاش والجدل من جديد .. وفى الساعة الثالثة من صباح ٢٠ يناير ، قضى المؤتمر برفض التأجيل ، بأغلبية ٣٨٠ صوتا ضد ٣١٠ .

وفى عصر اليوم ذاته ، تلى « جارا » — وزير العدل — نص الحكم على لويس السادس عشر فى سجنه .. وسمح له المؤتمر — بناء على طلبه — بأن يرى أسرته قبل اعدامه ، وأن يجتمع بقس اختاره ليتم على يده واجباته الدينية ..

وفى منتصف الساعة التاسعة ، استقبل أفراد أسرته .. ولبث يتحدث إلى زوجته وشقيقته زهاء ساعتين ، وهو يحتضن ابنته وابنه .. وكانت شهقات البكاء وصراخ الأمير الصغير تطغى على كل شىء .. حتى إذا حانت ساعة الفراق ،

عانق لويس أفراد أسرته ، وقال لابنه : « أوصيك بأن لا تسعى للانتقام ! » .. ثم اختلى بقسيسه حتى منتصف الليل ، وأوى إلى فراشه طالبا من خادمه أن يوقظه مع الفجر .. فلما نهض ، خلا إلى القس من جديد فى صلاة قصيرة ، ثم ترك خاتم زواجه وخصلة من شعره للملكة ، كما ترك الخاتم الذى يحمل توقيعه الملكى لابنه ..

لحظاته الأخيرة !

وكانت الطبول والضوضاء تترامى من الخارج .. وبعيد الساعة الثامنة اقتيد لويس إلى المركبة التى أعدت لحمله إلى المقصلة ، وجلس القس إلى جانبه ، وفى مقابلهما حارسان .. وسارت العربة تتقدمها فصائل من الجيش وتحيط بها كوكبة من الحرس الأهلى .. وكانت الشوارع تزخر بالجماهير الذين سادهم صمت رهيب !

وكانت المقصلة قد أقيمت فى ساحة « ميدان الثورة » الرحبة ، وقد أحيطت بالمدافع — اذ أشيع أن ثمة مؤامرات لاختطاف « لويس » فى اللحظة الأخيرة ! — وبلغ الركب الميدان فى الساعة العاشرة ، فسيق « لويس » إلى المنصة مباشرة .. ولم يكد يصعد إليها حتى عمد إلى خلع سترته بنفسه ، وفتح صدر قميصه ليكشف عن نحره .. كما نزع قبعته وفك شعره وتركه مسترسلا .. ثم ركع بين يدى القس يتلقى منه البركة .. وإذ حاول الجلادون أن يوثقوا يديه وقدميه ، رفض فى اباء واشمئزاز ، وحاول أن يقاوم بعنف ، لولا أن نصحه القس فاستسلم ..

ثم دعى إلى الاقتراب من المقصلة ، فنهض وسار إلى حافة المنصة ، ونادى بأعلى صوته طالبا إلى قارعى الطبول ان يكفوا لحظة .. حتى إذا ساد الصمت صاح : « اننى اموت بريئا من كل ما نسب إلى .. » .

وجذبه الجلاد من ذراعه فتلفت الملك ، حتى إذا لم يجد لكلماته صدى فى نفوس الجموع الحاشدة ، فارقه جلده ، وغاض الدم من وجهه ، ثم تحول إلى الجلاد قائلا : « افعل بى ما تشاء » .

وإذ هوى النصل على عنقه ، انبعثت منه صيحة مروعة .. ثم رفع الجلاد الراس الهاوى من شعره ، يعرضه على الشعب .. وغمس بعض الجنود ذؤابات سيوفهم فى الدم المراق ، وهم يهتفون : « تحيا الجمهورية » !



محاكمة دريفوس

اشهر قضايا الفساد

لعل قضية من قضايا العصر الحديث لم تشغل الأذهان ، وتهتز لها المشاعر ، وتثور لهـا الضمائر ، كقضية دريفوس : فهى قضية الحق المهدر ، والعدالة المفترى عليها ، والفساد الطاغى .. فساد القادة فى الجيوش ، والقضاة فى محاريب العدل ، إلى الحد الذى ذهب معه البرىء البار ضحية الخائن المفسد ، الذى حماه الطغيان ، ووضعه فى منصة الحكم ، واضفى عليه اكاليل الشرف .. وهو الجدير بأن يرسف فى الأغلال ، لولا سيادة الضلال .. !

ولكن عدالة السماء تمهل ولا تهمل .. والفساد لا يدوم الا ريثما تتنبه الضمائر الغافية ، وتنطلق صيحة التطهير مدوية .. فتتبدل الأوضاع بين عشية وضحاها : فاذا الحق أبلج ، والعدل مصون ، والفساد صريع ، والطغيان مهيض الجناح .. !

وإن فى ذلك لآية : ان العاقبة للمتقين .. وأن فى ذلك لعبرة : ان الله لا ينصر القوم الظالمين .. فما احرانا ان نؤمن وان نعتبر ، وقد رأينا آية الله تترى وتتكرر ، هنا كما هناك ، فينقلب الظالمون شر منقلب ، وقد وثب الحق فى اهاب الجيش الحر الظافر ، الذى

نقل مصر من حال إلى حال .. بل قل طفر بها إلى الأمام طفرة لم تكن لتبلغها بعد قرن من الزمان !

واليوم ، تحية لانتصار الحق ، نقدم للقراء قضية دريفوس ، اشهر قضايا الفساد فى الذمم .. والتطهير فى الأمم !

شهرة المظلوم لا الظالم ..

الشهرة ذكر يتداوله سمع الزمن ، وتتناقله السنة الناس . وإذا كان هذا هو مقياس الشهرة ، فدريفوس من اشهر مشاهير التاريخ .. !

ولكن بماذا أستحق دريفوس هذه الشهرة الضافية ؟ ماذا صنع لينالها ؟

انه فى واقع الأمر لم يصنع شيئا . فهو لم يبلغ هذا الصيت البعيد بما صنع ، بل بما لم يصنع ، وبما تحمل من آلام وعقاب على ذنوب هو منها براء .. فأضحى بذلك «رمزا» لضحايا الفساد ، والرمز قد يكون حجرا ، أو صورة لجندى مجهول .. وكل ما هناك من فرق ان الرمز فى هذه الحالة كان له اسم ، وكان هذا الاسم هو « دريفوس » .. !

شخصية دريفوس

وكل ما كان يؤهل دريفوس للقيام بهذا الدور هو فضائله السلبية : فقد كان رجلا نظيفا ، شجاعا ، ذكيا ، طموحا ،

رب أسرة مستقيم الخلق .. وإذا هو ينكب فى حريته وشرفه بتلك التهمة الظالمة التى قضت على مستقبله !

ولم يملك الرجل دفاعا عن نفسه سوى ان يصيح بأعلى صوته : « انى برىء ! » .. ولكن صيحته ذهبت مع الريح ، وضاعت فى ضجيج الاتهام الظالم والحماسة الشعبية المضللة ، فأغلق عليه باب « قبر الأحياء » : باب السجن الرهيب ، ليغيب فى ظلماته سنوات ! .. حتى قيض الله لضمير « الرأى العام » أن يتحرك ، بفضل جهود أبطال الانصاف الذين طلبوا اعادة محاكمة السجين التعس ، الميت الحى ! .. ففتح الباب مرة أخرى ، ليخرج منه إلى قفص الاتهام دريفوس آخر ، قد ابيض عارضاه ، واسرعت إليه الشيخوخة قبل الأوان .. !

.. فليست قيمة دريفوس إذن فى شخصه ، بل فيما يرمز إليه .. فان الآلة الضخمة حين تنتزع عاملا من مكانه ، لتلوكه بين دواليبها الهائلة لا تثير الناس لشخص هذا الشهيد وصفاته الذاتية ، بقدر ما تثيرهم لأنه بشر برىء .. ولأنه ضحية ، محض ضحية !

بل إن دريفوس كان أكثر من مجرد ضحية ، كان بمثابة « انبوبة اختبار » ، أو ورقة من « عباد الشمس » وضعت فى محلول هو المجتمع الفرنسى ، لتدل على طبيعة ذلك المحلول ! .. فقضية دريفوس لا تعنى البشرية بما تضمنته من وقائع ، بقدر ما تعنيها لما تدل عليه هذه الوقائع من انحلال فى بنية الأمة الفرنسية فى ذلك العهد ، وتغلغل من جانب

الفساد والتعفن فى أداتها الحكومية وضمائر رجالها العموميين .. فقد كانت قضية هذا « الإنسان » بمثابة مرآة سحرية رأى فيها كل فرنسى ذو خطر صورة روحه التى بين جنبيه ، وصورة روح فرنسا فى ذلك الحين .. كما كانت القضية فيصلا فارقا بين الحق والضلال ، بين الصدق والخديعة ، بين الرجولة والخسة ، بين الأريحية والنفعية ، بين البطولة والجريمة ، وبين النبل والوصولية .

فما اتفه الشخص فى دريفوس بالقياس إلى هذا الأثر الهائل الذى نجم عن محاكمته ، وهذه العبرة الكبرى التى خرج بها الشعب الفرنسى — بل شعوب العالم قاطبة — منها : وهى أن العزة بالاثم اشد نكرا من الاثم فى ذاته .. وأن الإمعان فى الضلال ، وادعاء العصمة من الخطأ — فرارا من الاعتراف به ! — لهو أقصى درجات الغرور والغباء ، بل الاجرام ! .. فهو يدفع أصحابه إلى محاولة محو الأخطاء ، أو فى القليل سترها ، ولو كلفهم ذلك التورط فى جرائم التزوير والاختلاق والنصب .. بل والقتل إذا لزم الأمر !

والآن لنبدأ القصة من أولها ..

من هو دريفوس ؟

هو الزاسى ، ولد فى سنة ١٨٦٠ — من اصل يهودى — فما بلغ العاشرة حتى وقعت حرب السبعين ، وهزمت فيها فرنسا هزيمتها النكراء ، فقضت شريعة الغالب أن يفصل عنها اقليما الالزاس واللورين : « لتأمين حدود المانيا الفتية

ضد كل عدوان فى المستقبل » ـ كما قيل فى تبرير ذلك الاجراء .. !

وتمسك آل دريفوس بفرنسا ، فرحلوا عن الالزاس إلى باريس ، وقلب الفتى الصغير يذوب حسرة على مسقط راسه الذى تدوسه أقدام اجنبية ، وتدنسه ظلال راية الأعداء ... فنشأ والانتقام لوطنه ينمو بين طواياه ، انتظارا لساعة الفصل الحاسمة يوما ما ..

فلما أشرف على الثامنة عشرة كان طبيعيا ان يلتحق بمدرسة الهندسة العسكرية (البوليتكنيك) .. وحين أتم الدراسة فيها دخل مدرسة المدفعية التطبيقية ، فتخرج منها ملازما ثانيا فى سلاح المدفعية وهو فى سن الثانية والعشرين .

وهكذا خطا اول خطوة نحو الانتقام لبلاده العزيزة من المانيا المغتصبة ..

والواقع ان فرنسا كلها كانت تموج بمثل ما يموج به صدر دريفوس الشاب من رغبه فى الانتقام من المانيا واسترداد الألزاس واللورين منها بالدم والحديد ! .. ومن ثم بدأت الدولة كلها تقدم ابناءها وأموالها قربانا لذلك المعبود الجديد ، « اله الانتقام » .. واستمرت تلك القرابين ثلاثين عاما ، تضخم فيها الجيش ، وتورم سلطانه .. وتورمت أيضا ديون فرنسا ، وارهقتها الضرائب حتى شلت حركة العمران فيها أو كادت .. !

دريفوس فى الجيش ..

وفى هذه الأثناء كان دريفوس يشق طريقه فى الجيش

مخلصا ، مجتهدا .. فلما تقدم لدخول مدرسة أركان الحرب وهو فى سن الثلاثين ـ سنة ١٨٩٠ ـ كان ترتيبه فى امتحان القبول ٦٧ .. ولكنه تخرج بعد سنتين فكان التاسع بين الناجحين ، وحاز درجة « جيد جدا » ! .. وبذلك صار عضوا عاملا من اعضاء هيئة أركان الحرب ـ التى تضم ٢٠٠ ضابط فقط ـ وهو شرف لا يناله الا الأكفاء ، وتتقطع دونه اعناق الكثيرين .. وقد نال ذلك الشرف وهو فى الرابعة والثلاثين ..

وكان هذا النجاح السريع ، مضافا إلى شبابه ، وثرائه الموروث ، سببا فى إثارة حسد الكثيرين له ، وغيرتهم منه .. وقد زادت وطأة هذا الحسد حين تزوج امرأة فارعة الطول ، بارعة الجمال ، رائعة القد ، ذات ثروة فاخرة من الشعر الجميل ... فولدت له ولدا وبنتا كانا قرة عينه ، وتمت بذلك له نعمة الدنيا من المال والبنين ...

بداية المأساة ..

فى ذلك الوقت كان وزير حربية فرنسا هو الجنرال «مرسييه» ، ورئيس إدارة المخابرات العسكرية هو الكولونيل « ساندهر » .. وكان ساندهر هذا يكره اليهود ، ويغص بوجود هذا اليهودى دريفوس فى هيئة اركان الحرب !

وكان مساعد ساندهر يدعى الكولونيل هنرى .. وكان هنرى هذا خائنا ، حتى لقد باع للملحق العسكرى الألمانى « شفارتسبوكن » أكثر من ١٦٠ وثيقة خطيرة ، من بينها تفاصيل خطة التعبئة العامة للجيش الفرنسى فى حالة الحرب .. !

وفى نهاية يوليه سنة ١٨٩٤ تلقى « شفارتسبوكن » من هنرى — عن طريق وسيطه المدعو « استرهازى » — اشارة تتضمن أن وثائق خاصة بسلاح المدفعية ، وبمستعمرة مدغشقر وتسليحها ، تكاد تكون حاضرة بين يديه .. وأنه ماض إلى المناورات ، ويأمل ان يستكمل تلك الوثائق فى خلال بضعة ايام !

وكانت السفارة الالمانية فى باريس تستخدم فى ذلك الحين امراة للتنظيف وجمع المهملات والنفايات من دارها كل مساء.. فاشترت إدارة مخابرات الجيش الفرنسى هذه المراة ، لكى تزودها بمحصول سلة المهملات من الأوراق الممزقة .. فلم يكن هذا المحصول يصل إلى إدارة المخابرات حتى ينهمك اكثر من ضابط فى لصق قصاصات الورق المتناثرة لمحاولة فك رموزها!

فلما فرغ الملحق العسكرى الألمانى من قراءة رسالة الخائن « هنرى » السالف ذكرها ، مزقها والقى بها فى سلة المهملات .. وفى تلك الليلة عينها كانت الرسالة قد وصلت عن طريق « جامعة القمامة » إلى مقر إدارة المخابرات العسكرية الفرنسية ! .. وادرك الضباط الذين فكوا رموزها انهم قد وضعوا ايديهم اخيرا على الرجل الذى ظل يفشى اسرار الجيش للعدو زمنا دون ان ينكشف امره ..

وانتفخت اوداج « ساندهر » ، وخفق قلبه زهوا وفرحا .. فراح يزأر كالأسد الهصور وقد شم رائحة الفريسة عن بعد !

الشبهة تحوم حول دريفوس

وكانت الادلة التى تشير إلى المتهم كثيرة : فهناك اولا خط يده الذى كتب به الرسالة . وهناك — ثانيا — المعلومات التى تتضمنها تلك الرسالة .. وهناك — ثالثا — اشارة كاتبها إلى انه مزمع ان يشترك فى المناورات ! .. واخيرا كان مضمونها يفصح عن ان صاحبنا من ضباط هيئة أركان الحرب .. !

ولما كانت اكثر موضوعات الرسالة تتصل بالمدفعية ، فقد غلب على الظن ان كاتبها من ضباط ذلك السلاح ! .. وكان طبيعيا والحالة هذه ان تميل الظنون إلى اتهام ذلك اليهودى الطارىء على هيئة اركان الحرب : فهو من ضباط المدفعية ، وكان مرشحا للاشتراك فى المناورات .. فلم يبق إلا التأكد — بمضاهاة الخطوط — من انه كاتب تلك الرسالة المشئومة !

ولما كان الإنسان ميالا دائما إلى تصديق ما «يتمناه» ، فقد شهد وكيل القسم الذى يعمل فيه دريفوس أنه يعتقد ان ثمة تشابها بين خط الرسالة وخط الضابط دريفوس !!

وعندما يريد الرؤساء شيئا ، يؤيد المرءوسون عادة تلك الارادة ! .. لهذا لم يكد الخبير « ديجوبير » يقرر أنه « لا » يعتقد بتطابق الخطين ، حتى استبدل فورا بخبير آخر هو رئيس تحقيق الشخصية « برتيون » !

وفى هذه الاثناء كان الكولونيل « هنرى » قد شعر باكتشاف رسالته — التى كتبها بخط شريكه استرهازى فى

الواقع — وادرك ضرورة تكديس القرائن المضللة التى تؤيد الاشتباه فى دريفوس ! .. ولكن كانت المعضلة الكبرى أن الرسالة كانت مؤرخة فى شهر مايو ، وفى ذلك الشهر كان دريفوس يعلم انه لن يشترك فى المناورات ! .. لكن هنرى احتال على ذلك بأن غير تاريخ الاشارة فجعله شهر ابريل !

وهكذا تمت حلقات السلسلة ، ولم يبق الا ان يلقوا الأغلال حول معصمى دريفوس .. !

وقد تم القاء القبض عليه فى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٩٤ .

الخائن يعتقل البرىء !

وكان الذى كلف بتنفيذ أمر القبض ضابط يدعى البكباشى « ديكلام » ، كتب إلى دريفوس الكلمة التالية : « أرجو أن تقدم نفسك لوزارة الحربية فى صباح ١٥ أكتوبر الساعة التاسعة ، لكى تتلقى تعليمات خاصة بك »

وذهب دريفوس فى الموعد المحدد ، فأخذ ديكلام يملى عليه ، بحضور اثنين من كبار موظفى الوزارة ،خطابا يتضمن كلمات مشابهة لما جاء فى الرسالة . فراح دريفوس يكتب دون ان يفهم المقصود ، بخط واضح متزن .. وإذا ديكلام يصيح به :

— انك ترتعد !

— كلا .. ولكن اناملى مقرورة .

وفى هذه اللحظة دخل الخائن هنرى ومعه مدير الأمن

العام وقبضا عليه باسم القانون ! .. فصاح دريفوس متعجبا ، ومستفهما ، ومستنكرا .. لكنهم اجابوه بقولهم :

— انك تعرف السبب فلا تتجاهل ، لأن خيانتك قد كشفت !

ثم اقتاد هنرى الخائن دريفوس البرىء إلى غيابة السجن ، حيث اودع زنزانة أعدت له فى اليوم السابق بأمر وزير الحربية .. الذى كان قد وقع أمر القبض قبل عملية الاملاء لمضاهاة الخط بأربع وعشرين ساعة !

فى السجن ..

وكان طبيعيا أن يثور دريفوس ويغدو أشبه بالمجنون ، فقد راح يصيح طول الوقت متأوها ومتفجعا ، طالبا ادوات الكتابة ليتظلم إلى الوزير .. ولكن بغير جدوى ! وعافت نفسه الطعام تسعة ايام ، وصار لا يذوق النوم الا حين يهده التعب من الصراخ والزئير . وزاروه فى سجنه ليحملوه على الاعتراف بما لم يرتكب ، فازداد غضبا وتألما ..

وهاجم ديكلام بيته بحثا عن الأدلة المزعومة ، دون ترخيص من النيابة ! وأباح لنفسه أن يصيح فى وجه زوجته أن زوجها خائن ، خائن لوطنه ولها ، لأنه قد ثبت عليه تهمة الفسوق كما ثبتت عليه تهمة الخيانة العظمى ! .. ثم حذرها من انشاء خبر القبض عليه وهددها بالويل والثبور .. بيد أن السيدة الوفية لم تصدق حرفا مما قيل لها .

ورغم عدم وجود اية ادلة ضد المتهم فقد صرح الوزير للصحف ان تهمة الخيانة العظمى ثابتة ثبوتا قاطعا على المدعو الفريد دريفوس ، وأن ادانته محققة !

أمام المجلس العسكرى

واخيرا حدد يوم ١٩ ديسمبر لبدء محاكمة دريفوس ، واختير سبعة من الضباط اعضاء للمجلس العسكرى العالى الذى سيتولى تلك المحاكمة .. وكان دريفوس حتى بداية المحاكمة واثقا من صدور الحكم ببراءته ، وتقدم على هذا الاعتقاد إلى قضاته . وقد وكل للدفاع عنه الاستاذ «ديمانج»

لكنه تلقى الصدمة الأولى حين طلب نائب الأحكام نظر القضية فى جلسة سرية ، ولم تجد احتجاجات محامى المتهم امام التعلل بمصالح الدولة العليا واسرارها ! .. وهكذا اقفلت الأبواب دون نور العلانية ورقابة الراى العام ..

ومن عجب ان الأدلة كانت تقوم كلها على أن دريفوس كان يقضى فى مكتبه ساعات بعد انصراف زملائه بحجة انجاز الأعمال ، وانه قال عند القبض عليه « خذوا مفاتيح مكتبى وفتشوا فى كل مكان فلن تجدوا شيئا يديننى ! » .. ولما كان هذا هو الواقع فعلا ، فقد اعتبر دليلا على انه محتاط سلفا حيطة المريب ، وهذا بطبيعة الحال منطق مقلوب .. !

ثم قدمت الرسالة التى يقوم عليها الاتهام ، ومعها تقرير مدير تحقيق الشخصية الذى يزعم بانها مشابهة تماما لخط المتهم !

الملف السرى !

وبدا ان القضاة غير مستريحين تماما إلى ادانة دريفوس بهذه الأدلة الواهية .. وعندئذ لجأ الفساد إلى ضربته الكبرى ، فاذا بوزير الحربية يبعث إلى رئيس المحكمة بمظروف مختوم فيه ملف سرى ليطلع عليه الرئيس والقضاة، على الا يطلع عليه المتهم او محاميه ، لان ذلك الملف يتضمن اسرار الدولة العليا . واصر الوزير الهمام على أن يعود ياوره بالملف السرى فور اطلاع الرئيس عليه دون إمهال .. !

وما إن قرأ الرئيس اول وثيقة فى الملف حتى صاح :

ــ وما حاجتنا إلى مزيد من الأدلة بعد هذا ؟

ثم اطلع زملاءه القضاة على تلك الوثيقة ، وعلى اثر ذلك صدر الحكم فورا بادانة المتهم باجماع الآراء !

وكانت الوثيقة الأولى خاصة ببيع دريفوس اسرار قنبلة اثناء التحاقه بكلية اركان الحرب .. وكانت تتضمن سيرة موجزة لحياة دريفوس تصورها فى صورة غاية فى الابتذال والدعارة . وقد بلغ من قذارة هذه الوثيقة ان وزير الحربية احرقها بنفسه بمجرد استردادها من المحكمة ، كما يدفن القاتل الخنجر الذى اقترف به جريمته ! ولكن صورة من هذه الوثيقة كانت محفوظة بادارة المخابرات السرية ، إلى ان كشف أمرها فى سنة ١٨٩٧ فبعثوا بها إلى الجنرال ميرسييه فى بيته ــ وكان قد ترك منصب وزير الحربية قبل ذلك ــ فأحرقها بنفسه هى الأخرى .. !

وكانت الوثيقتان الثانية والثالثة خطـابات من الملحق العسكرى الايطالى إلى الملحق العسـكرى الألمـانى وفيهـا اشارات إلى الوغد « د » الذى يبيعهما اسرارا عسـكرية فرنسية ذات قيمة ، واشارات إلى ان زوجة « د » تتعشى فى بعض الأحيان مع الملحقين !

ولما كانت مدام دريفوس لم تقابل الملحقين فى حياتها فلا ريب ان « د » لم يكن هو دريفوس .. !

اما الوثيقة الرابعة فكانت صورة تقرير سرى من الملحق العسكرى الايطالى إلى حكومته يقول فيـه : « إذا لم تكن لدريفوس عـلاقة بكم فكلفوا السفير بالتكذيب رسـميا حتى نتحاشى تعليقات الصحافة ! »

ولكن وقـع تحريف فى فك رموز الشـفرة بحيث صـار معنـاها إن القبض على دريفـوس يوجب الاحتيـاط حتى لا يكشف بقية الجواسيس !

وهـكذا ادان المجلس العسكرى العالى رجـلا بريئا ، ووصم شريفا بوصمة الخيانة العظمى . ولم تجد التماساته واحتجاجاته نفعا فى تغيير الحكم .. فاقتيد إلى السـجن ، مارا بالكلية الحربية حيث جرد من علامات رتبته ! .. وكان آخر ما استحلف به زوجته الا تتوانى عن التنقيب والبحث عن المذنب الحقيقى !!

وفى نفس اليوم طلعت الصحف على الناس بتصريح من وزير الحربية نسب فيه إلى دريفوس أنه صرح بقوله : « انى

برىء .. وإذا كنت قد أعطيت المانيا وثائق لا قيمة لها فلكى اجعلها طعما للايقاع بجواسيس المـانيا ! » .

وهو كلام لم يصدر عن دريفوس اصلا ، ويـدل على ان وزير الحربية كان يعلم ببراءة دريفوس مما نسب إليه . وقد بعث دريفوس بتكذيب للتصريح المنسوب إليه ، ولكن وزير الحربية لم يسمح بنشره !

الدفين الحى ..

وما إن تمت « حفلة » تجريد دريفوس فى الكلية الحربية ، وهو يصرخ محتجا ببراءته ، والشعب المتجمع حول اسـوار المدرسة الحديدية يجأر بالهتاف :

ــ الموت للخائن ! نريد رأس دريفوس ! يسقط يهـوذا الخائن !

ما إن تمت هـذه المراسـم الأليمـة ، حتى كان رئيس الجمهورية قد اضطر لاخلاء مقعده لرئيس جديد . هو المسيو « فور » ، الذى عـدل مكان تنفيذ العقـوبة ، فبعد ان كان مقررا ان يقضيها دريفوس فى احدى القلاع الحصينة بفرنسا .. أمر رئيس الجمهورية بأن يقضيها فى جزيرة الشيطان .. !

وما ادراك ما جزيرة الشـيطان ! انها جزيرة نائيـة تتنازعها امواج المحيط عند ساحل غينيا الفرنسية بجنـوب امريكا ..

وذهبوا به إلى هناك ، حيث قضى عامه الأول منسيا من

الناس ، الا من خاصة ذويه ، وكأن حجابا كثيفا قد اسدل بينه وبين الحياة ، كحجاب القبر .. !

ونالت منه الملاريا الوبائية ، وانهارت صحته تحت ضغط آلامه النفسانية والعصبية ، وأتلفت جرعات دواء الملاريا المتعاقبة طاقته الهضمية .. وكان طيلة الوقت يكرر لحراسه القساة الجامدى الوجوه الشاهرى السلاح :

— انى برىء .. لست خائنا .. وما كنته ، ولن اكونه .. !

.. يرددها فى نغمة آلية ، كأنها « اسطوانة » من اسطوانات الحاكى !

ولما كانت سنة ١٨٩٦ ، امر وزير المستعمرات بأن يضاف إلى قيود سجنه قيد جديد ، وذلك بان توضع فى يديه ورجليه الاغلال ، امعانا فى النكاية به .. وأن يقيد إلى الفراش بقضيب طويل من الحديد لا يسمح له اثناء الرقاد الا بالحركة على جنب واحد ، وبصعوبة والم شديدين ! اما ثنى ركبتيه اثناء النوم فرابع المستحيلات !

وكان الموت مخرجا مريحا له من هذا العناء ، لكنه كان يكرر دائما انه لن يريحهم بموته ، وظل يكافح الموت بقوة ارادة فولاذية .. فقاوم المرض والآلام النفسية وظل حيا فى قبره النائى على امل غامض فى استرداد اعتباره يوما ما ..

ولكن هذا اليوم ظل بعيدا ... مدى خمس سنوات طويلة !

مفاجـاة ... !

وفى اول يوليو سنة ١٨٩٥ ترك « ساندهر » منصبه فى إدارة المخابرات السرية لخليفته الكولونيل « بيكار » .. قائلا له فى صدد « دريفوس » — الذى كانت الصيحات قد بدأت تتعالى بطلب اعادة محاكمته :

— إذا احتجت لشىء فاطلب من هنرى « الملف السرى »، وسيقنعك الاطلاع عليه بادانة الرجل !

وبقيت الأمور عند هذا الحد إلى أن كانت نهاية مارس سنة ١٨٩٦ ، فاذا بجامعة القمامة العتيدة تنقل إلى الإدارة — فيما تنقل من قصاصات سلة مهملات السفارة الالمانية — رسالة صغيرة موجهة إلى استرهازى عضو المخابرات السرية الفرنسية .. يطلب فيها منه ايضاحات كتابية فى صدد « المسألة موضوع البحث » ، حتى يرى الملحق العسكرى هل يستمر فى اتصالاته بمؤسسة « ر » ام لا .. !

واهتم بيكار — الرئيس الجديد — بالموضوع . إذ كيف يتفق أن يكون استرهازى متصلا بالملحق العسكرى الالمانى ؟ وتحرى بيكار سيرة استرهازى فوجده منحلا ساقط السيرة من أكثر من وجهة واحدة !

وطلب بيكار « عينات » من خط يد استرهازى ، فهاله ان يجده مطابقا كل المطابقة لخط الرسالة التى ادين بسببها دريفوس !

ورفع بيكار معلوماته إلى القائد الجنرال جنوز ، فأمره بالاستمرار فى تحرياته .. فاستدعى رئيس إدارة تحقيق

الشخصية (الذى كان قد أقسم أمام المجلس العسكرى العالى أن الإشارة بخط دريفوس) فإذا به يجزم هذه المرة أنها بخط استرهازى !

وهنا عاد بيكار إلى « جنوز » مقترحا الترخيص له بالعمل الحاسم فورا ! .. ولكن كان معنى ذلك فضح المجلس العسكرى العالى والنظام العسكرى كله أمام الراى العام ، وزعزعة الثقة فى هيبة الجيش . لهذا نصحه « جنوز » بالتريث والحذر .. بيد ان بيكار عاد بعد مدة قصيرة يلح فى العمل الحاسم حتى لا يفلت زمام الموقف ومزية المفاجأة من يد إدارة الاستعلامات إلى الجواسيس والاعداء .. فكان رد « جنوز » فى اليوم التالى على بيكار :

— ولكن ماذا يضيرك أن يبقى هذا اليهودى فى جزيرة الشيطان ؟

— ولكن إذا كان بريئا ؟

— ماذا تقول ؟ أو تريد أن تعيد هذه المحاكمة ، لتطيحن بسمعة الجيش وسمعة قواد كبار — مثل الجنرال ميرسيه وزير الحربية السابق — كانت لهم فى المحاكمة الأولى اصابع وضلوع !؟

— دريفوس برىء يا سيدى القائد ، وهذا سبب كاف لاعادة المحاكمة .. وهب ان اسرته وضعت يدها على المجرم الحقيقى ، فكيف نواجه الناس حينئذ ؟

— انك إذا كتمت الموضوع لن يعلم بالحقيقة احد .. !

— أن هذا الذى تقول عجيب وشائن يا سيدى الجنرال. ومهما يكن من امر فلن اسمح لنفسى ان احمل هذا السر معى إلى القبر !

وخرج بيكار من الغرفة وقد حزم أمره على شىء !!

جهود امراة !

صدق القدامى حين قالوا إن من الأعداء من يؤدون لنا خدمات لا يقدر عليها الأصدقاء ! .. ففى سبتمبر سنة ١٨٩٦ نشرت جريدة « اكلير » مقالا او تحقيقا صحفيا بعنوان « الخائن » ، تضمن بعض المعلومات عن قضية دريفوس .. فأرادت صحيفة « الماتان » أن تنافس زميلتها فى هذا المضمار وتحرز نصرا صحفيا مثيرا ، فنشرت صورة زنكوغرافية لما زعمته الرسالة التى أثبت الخبراء انها بخط دريفوس ! .. ولما كانت هذه الاشارة فى الواقع بخط استرهازى فقد ادى نشرها إلى انزعاج الملحق العسكرى الألمانى والملحق العسكرى الايطالى لأن رجلهما قد انكشف أمره ! .. اما استرهازى نفسه فبادر بالفرار إلى مدينة روان ..

وكان الأثر المباشر لنشر صورة الرسالة أن تقدمت زوجة دريفوس إلى السلطات بالتماس اعادة محاكمة زوجها ! .. فكان رد الحكومة على هذا الالتماس فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦ غلطة اخرى من سلسلة اغلاطها ، إذ قالت على لسان وزير الحربية فى بيان للصحف :

— إن قضية دريفوس لها قوة الشىء المحكوم فيه ، فلا وجه لإعادة المحاكمة .. !

وإذ ذاك اطمأن استرهازى لذلك التصريح فعاد إلى باريس . وفى هذه الآونة بالذات ندبوا بيكار لمهمة خارج باريس ، فصارت إدارة المخابرات فى يد الكولونيل هنرى شريك استرهازى فى الخيانة .. فراح يعد سلسلة من الوثائق المزورة المدسوسة على الملحق العسكرى الايطالى ، بحيث يفهم منها ان دريفوس هو « د » المشار إليه فى بعض تقاريره التى استطاعت المخابرات الفرنسية الحصول عليها ! .. بيد أن التزوير كان غير محكم ، كما ذهب الشخص الذى قام به (لحساب هنرى) إلى الملحق العسكرى الالمانى وباعه سر ذلك التزوير !

اما هنرى ، فانصرف بعد ذلك إلى تدبير ما يطيح ببيكار الصادق الأمين من إدارة المخابرات ، ليحل هو محله على راس إدارة المخابرات !

والواقع ان المهمة التى ندب لها بيكار فى اخطر بقعة من الحدود التونسية كان المقصود بها التعجيل بالقضاء عليه قبل أن يبوح بسر دريفوس لاى إنسان ! .. ولولا ان الجنرال المقيم فى ذلك القطاع لم يكن فاهما للمقصود من المهمة فمنع بيكار من الذهاب إلى غاية مداها ، لكان بيكار قد قتل ولا محالة !

وادرك بيكار ان المتآمرين قد شرعوا يلقون شراكهم حوله ، فعاد إلى باريس حيث قدم لمحاميه الخاص صورة من المكاتبات المتبادلة بينه وبين الجنرال جنوز بخصوص قضية دريفوس ، وحقيقة كاتب الرسالة التى ادين دريفوس بناء

عليها ! .. فحمل المحامى هذا كله إلى نائب رئيس مجلس الشيوخ المدعو « شويرر كستنر » ، وهو رجل الزاسى فاضل من مواطنى دريفوس كان غير مستريح من بداية الأمر لادانته ، فما إن اطلع على هذه المكاتبات وراى تأشيرات جنوز الفاضحة حتى عقد العزم على اصلاح هذا الخطأ الشائن فقابل رئيس الوزراء .. ولكن رئيس الوزراء صم أذنيه عن نداء العدل ! .. فاتجه الرجل إلى الجنرال بيبو صديقه الحميم ووزير الحربية ، ولكن تساند الفساد فى الأداة الحكومية والجيش جعل ذلك الرجل يصم اذنيه ايضا عن نداء العدل والحق .. بل وبدات الصحف تنشر حملات طافحة بالسباب ضد نائب رئيس مجلس الشيوخ الذى يريد اثبات براءة دريفوس !

ان ربك لبالمرصاد !

ولكن فى اكتوبر سنة ١٨٩٧ حدث ما قلب موازين الأمور ، فقد اكتشف سمسار فى البورصة يدعى ديكسترو — كان يتولى شئون استرهازى المصرفية — ان الرسالة بخط عميله استرهازى لا محالة ، فحمل خطاب استرهازى الذى تحت يده إلى نائب رئيس مجلس الشيوخ ، واتضح من المضاهاة صدق اعتقاده ! فسارع شقيق دريفوس إلى نشر بيان على صفحات الصحف يتهم فيه استرهازى علنا بأنه كاتب الإشارة !!

وكانت النتيجة المباشرة لانكشاف الأمر ان راح انصار الفساد ينشرون حملات منظمة للنيل من انصار دريفوس ..

وبدأت المعركة الرهيبة بين الفريقين ! .. فراح هنرى واسترهازى يزوران برقيات على انها صادرة من بيكار لكى يلقوا عليه تهمة الخيانة . ولكن شاءت عدالة السماء ان يضع المجرمون « امضاءهم » على التزوير دون أن يدروا ، فقد كتبوا اسم بيكار بالطريقة « الخاطئة » التى يتهجاه بها استرهازى ، فتيسر بذلك لبيكار ان يعرف صاحب التزوير ويعمل على فضح أمره !

ولما احس استرهازى بوشك افتضاحه توجه لمقابلة الملحق الألمانى وشهر مسدسه فى وجهه مهددا اياه ان يقتله ثم ينتحر إن لم يذهب الملحق ليقول لمدام دريفوس أن الذى كان يبيعه الأسرار الحربية هو زوجها وليس استرهازى !

ولكن الملحق الألمانى رفض هذا الطلب ، ولم يفعل أكثر من وعد محدثه بالا يشى به أو يبوح بسره ..

تزوير مركب !

وفكر المجرمون فى إجراء « تزوير مركب » لانقاذ استرهازى وذلك بأن يدسوا وثائق مزورة على انها صادرة من استرهازى .. ثم يحقق معه فى أمرها قضائيا ، فيثبت بطبيعة الحال انها مزورة ضده ومدسوسة عليه ، وإذ ذاك يصدر الحكم ببراءته ! .. وتكون تلك مناسبة طيبة لأن تعلن وزارة الحربية انه رجل شريف « استحق تقدير الوطن » وانه ضحية حملة ظالمة من المجرمين الخونة ! .. ثم تكون الخطوة التالية اتهام بيكار بالتزوير .. وبذلك يضرب الاثمة الاذكياء عصفورين بحجر واحد !

وقد تم كل شىء بالفعل حسب الخطة الموضوعة ، فأعلنت براءة استرهازى .. وقبض على بيكار واودع السجن !!

إنى أتهم !

فى هذه اللحظة انبرى لقضية دريفوس محام من نوع ممتاز ، خارق للعادة . ذلك هو الكاتب الالمعى « اميل زولا » ، الذى نشر فى صحيفة « الاورور » اتهاما صريحا لوزارة الحربية بأنها برات استرهازى بالأمر ، للتستر على «جريمة» ادانة دريفوس البرىء غيلة وغدرا !

وكان الاتهام من القوة والعنف بحيث رات الحكومة انها مجبرة على انقاذ شرفها ، بتقديم « اميل زولا » نفسه للمحاكمة ! بيد ان الفساد كان من الخبث والدهاء بحيث اقتصرت المحاكمة على الفقرة الخاصة بأن تبرئة استرهازى كانت بأمر وزارة الحربية ! .. اما كل ما يتعلق بقضية دريفوس فمنع التعرض له اثناء القضية لأنه حائز لقوة « الشىء المحكوم فيه » ! .. وهكذا تحصن الفساد بذرائع ومعاذير قانونية وفقهية ، فى الوقت الذى وقف فيه وزير الحربية فى المحكمة يقول للمحلفين :

— إذا لم تدينوا زولا فمعنى ذلك أن شرف الجندية قد استبيح ، وسيضطر كبار الضباط إلى تقديم استقالة اجماعية مادامت تضحياتهم الكريمة لا تقابل إلا بالجحود ، وما دامت كراماتهم نهبا لكل متطاول !

وهنا وقف زولا فألقى دفاعه الخالد ، الذى جعل همه

فيه أن يدفع التهمة ، لا عن نفسه .. بل عن دريفوس ! .. وقد ختم ذلك الدفاع بعباراته المأثورة ..

« أن دريفوس برىء ، اقسم على ذلك ، بحياتى ، بشرفى ! ..

« فى هذه الساعة الحاسمة .. وأمام هذه المحكمة الموقرة ، التى تمثل العدالة الإنسانية .. وامامكم أنتم جميعا أيها السادة ، الذين تمثلون صفوة رجال القانون .. وامام فرنسا باسرها .. بل امام العالم اجمع .. اقسم أن دريفوس برىء ! .. بل باسم الأربعين عاما التى انفقتها فى الكد والعمل ، وباسم النفوذ الأدبى الذى كفله لى ذلك الجهاد الشاق ، أقسم أن دريفوس برىء ! .. باسم الصيت الذى بنيته لنفسى حجرا فوق حجر ، وباسم مؤلفاتى التى ساهمت فى نشر الثقافة الفرنسية ، أقسم أن دريفوس برىء ! .. فليتبدد كل ذلك مع الريح ، ولتفنى مؤلفاتى ويمحى اسمى من الوجود ، ان لم يكن دريفوس بريئا ! .. وأنه لبرىء !

« ان الجميع يقفون فى هذه القضية ضدى : مجلسا البرلمان .. والسلطات المدنية .. والصحف الكبرى الواسعة الانتشار .. والرأى العام الذى سمم كل هؤلاء افكاره ! .. وليس فى جانبى غير شىء واحد : المثل الأعلى ، المثل الأعلى فى الحق والعدالة ! .. لكنى مع ذلك مستريح الخاطر ، مطمئن إلى انى سأنتصر .. فلقد عقدت العزم على ان لا يظل وطنى ضحية للاكاذيب والمظالم . وانا أعلم اننى قد ادان بسبب ذلك ، ولكن سوف يأتى اليوم الذى تشكرنى فيه فرنسا على كونى ساهمت فى انقاذ شرفها ! »

ورغم هذا الدفاع البليغ فقد ادانت المحكمة اميل زولا .. حكمت عليه بالحبس سنة وبغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك ! .. فى الوقت الذى تألف فيه مجلس عسكرى لمحاكمة بيكار محاكمة سرية ، لأنه أطلع محاميه على المكاتبات المتبادلة بينه وبين الجنرال جنوز .. فاسفرت المحاكمة عن معاقبته بالطرد من خدمة جيش الجمهورية !

وقدم زولا نقضا للحكم إلى محكمة النقض ، فقبلت الطعن – لخطأ المحكمة فى تطبيق القانون – وامرت بإعادة المحاكمة .. غير أن زولا استمع لنصائح الذين حذروه من تعريض نفسه للسجن ظلما وعدوانا ، فآثر الهجرة إلى انجلترا للبقاء فيها بمنآى عن الخطر حتى تتغير الأوضاع ..

وهكذا انتصر الفساد على العدالة مرة اخرى !

وزراء يكذبون !

وكانت ثالثة الأثافى أن برلمانا جديدا قد إنتخب ، فوقف وزير الحربية الجديد يعلن بكل تبجح أن دريفوس قد اعترف بجريمته ، وقدم للمجلس وثيقة مزورة تؤيد هذا الزعم ! .. فقرر المجلس بإجماع أصوات النواب ما عدا صوتين (٥٧٢ ضد ٢) أن تعلق صور من هذه الوثيقة المزورة فى كل قرية من قرى فرنسا البالغ عددها ٣٦٠٠٠ قرية ! .. وثار بيكار على هذه الفرية المكذوبة فكتب إلى الصحف إن هذه الوثيقة مزورة ، فكان رد الحكومة القاء القبض عليه وايداعه السجن من جديد !

بيد ان الضمير الإنسانى أبى على الملحقين الألمانى والايطالى إلا ان يعلنا أن الوثيقة مزورة ، وافضيا لوزير الحربية بأن الذى زورها قام بذلك التزوير بأملاء الكولونيل هنرى ! .. فامر وزير الحربية بالتحقيق مع هنرى ، وضيق الخناق عليه ، فاعترف بأنه قام بذلك التزوير لمصلحة الجيش العليا ، فالقى القبض عليه فى الحال !

ولكن ، فى صباح اليوم التالى فوجىء المسئولون بالعثور على هنرى هذا فى زنزانته .. مذبوحا ! وما زال سر مصرعه غامضا إلى اليوم .. !

هل قتل حتى لا يشى بشركائه ؟
هل انتحر بأمر رؤسائه ليصون سمعة الجيش ؟
أم انتحر من تلقاء نفسه خزيا وعارا ؟
علم ذلك عند علام الغيوب ..

ولكن الذى لا شك فيه أن الصحافة قامت وقعدت لمقتله، وقالت إنه شهيد الواجب ، وإن تزويره لم يكن الا « كذبة بيضاء » لصالح الدولة .. وجمع بالاكتتاب العام مبلغ ٦٠٠٠ جنيه لاقامة نصب تذكارى للشهيد الكريم !

واخيرا ...

وأنتج اعتراف هنرى ومصرعه أثرهما العميق ، فاستقال وزير الحربية ، واستقال قائد الجيش « بواديفر » ، وفر « استرهازى » و « ديكلام » إلى إنجلترا .. وهناك راح استرهازى يكرر على جميع الأسماع دون حياء انه هو كاتب الرسالة المشئومة بلحمه ودمه !

واضطر رئيس الوزراء « بريسون » أن يعلن اعادة نظر القضية أمام محكمة النقض والإبرام .

وفى ٢٦ سبتمبر بدأت المحكمة العليا تحقق القضية من جديد .. وانتهت بعد تحريات دقيقة إلى أن استرهازى هو كاتب الرسالة السرية التى أدين بسببها دريفوس . وأن هذا كاف لهدم ادانة دريفوس ، ولوجوب إعادة النظر فى قضيته فورا !

وهكذا أعيد دريفوس من جزيرة الشيطان إلى فرنسا ، لتعاد محاكمته .. لا فى جلسات سرية ، بل على ملأ من الراى العام فى « رين » . وأدلى ستة وزراء للحربية من رجال الجيش القدماء بشهاداتهم ، فقرروا اعتقادهم الراسخ فى براءة دريفوس ! ..

واخيرا جاءوا بالملف السرى المزعوم .. فاذا به خلو من اى دليل ، ما عدا شائعات حشيت بها تقارير سرية لا سند لها ، فاضطر الجنرال مرسييه (وزير الحربية السابق وقت محاكمة دريفوس الأولى) ان يواجه القضاة بقوله :

ــ اختاروا بيننا : هو أو انا !

اى بين هيبة العسكرية وبين تبرئة دريفوس ! .. ولم يكن القضاة رجال قانون بل رجال سيف ، فخيل اليهم ان المطلوب ان يثبت دريفوس براءته والا فهو مذنب ، لا أن يثبت الاتهام ادانته والا فهو برىء ..!

بيد أن الاستاذين لابورى وديمونج بينا للقضاة العسكريين الوضع الحقيقى لأصول العدالة .. فوجد هؤلاء

انفسهم عاجزين عن اثبات الادانة ، ولا سيما بعد ان اتضح أن استرهازى اعترف بكتابة الاشارة ، كما ثبت أن استرهازى حضر المناورات وان دريفوس لم يحضرها ..

ورغم هذا كله فقد عز على اكثر القضاة ان يطعنوا هيبة الاحكام فى الصميم فيسجلوا اعترافهم بخطأ الحكم السابق ، فانحاز خمسة منهم ضد دريفوس .. ولم ينصفه من الظلم الفاحش الواقع عليه غير قاضيين فقط !

وهكذا صدر الحكم بحبسه فى قلعة حصينة بأرض فرنسا مدة عشر سنوات ! .. ولكن شعور القضاة بخطئهم فى تضحيته ، فى سبيل هيبة القضاء ، جعلهم يشفعون ذلك الحكم برجاء اعفاء المذنب من التجريد من رتبته العسكرية لوجود « ظروف مخففة » .. مع أنه لا ظروف مخففة على الاطلاق فى جرائم الخيانة .. وانما هو شعورهم الدفين بنقاء ساحته !

وسرى فى النفوس شعور بالغضب لذلك الذى حدث .. ووضح للناس أن وجود اثنين من قضاة دريفوس يقولان ببراءته ، معناه أن الرجل برىء فعلا ، وليس هناك دليل واحد قاطع على ادانته . كما أن السنوات العشر أخف عقوبة ممكنة للخيانة ! .. واذن فالحكم ينطوى فى الواقع على اعتراف ضمنى بوقوع ظلم على الرجل ، وبأنه برىء الساحة ..

واستجاب رئيس الجمهورية لصوت الرأى العام ، فقرر اطلاق سراحه فورا !

وهكذا خرج دريفوس إلى نور الحرية فى الساعة الثالثة صباحا ، بعد خمس سنوات من دفنه حيا .. !

يطالب برد اعتباره .. بحكم قضائى !

لكن الوطنى البرىء الذى أدانه القضاء بحكم دامغ ، لم ير فى « عفو » رئيس الجمهورية ردا كافيا لاعتباره .. فكتب إلى رئيس الوزراء — فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٠ — يقول : « ان براءتى التى أستشعرها فى قرارة نفسى تهيب بى ان اظل ادافع عنها وأسعى لاثباتها — بحكم قضائى — حتى آخر يوم من حياتى .. لذلك اكرر مطالبتى بالحق المشروع لكل مواطن فى الدفاع عن شرفه .. ومن ثم فانى التمس من عدالتكم اصدار الأمر باعادة التحقيق فى قضيتى بمعرفة أعلى هيئات القضاء فى البلاد ! »

وواصل دريفوس سعيه إلى هذا الهدف نحو عامين .. واخيرا — فى سنة ١٩٠٣ — اجابه المسئولون إلى طلبه فشكلوا لجنة من كبار رجال القانون والجيش لفتح باب التحقيق فى قضيته من جديد ..

وعكفت اللجنة على مهمتها طيلة أكثر من عامين آخرين ، بذلت خلالهما جهودا جبارة فى سبيل الكشف عن الحقيقة واثباتها بالأدلة القاطعة .. فلما انتهت من ابحاثها رفعت نتيجة التحقيق إلى النائب العام ، الذى أمر باعادة نظر القضية من جديد أمام دوائر محكمة النقض مجتمعة ..

ونظرت المحكمة القضية ، وقتلتها بحثا وتمحيصا .. حتى انتهت فى ١٢ يوليو سنة ١٩٠٦ إلى اصدار حكمها

النهائى فيها ببراءة دريفوس من كل ما نسب إليه ، واحقيته فى التعويض عما أصابه من عسف واضطهاد .. ونشر الحكم على نفقة الحكومة فى خمسين صحيفة فرنسية !

ثم اجتمع مجلس النواب فأصدر — باغلبية ٣٤٣ صوتا ضد ٨٨ — قرارا بتوجيه الشكر لكل من عاونوا بجهودهم وتضحياتهم على أظهار الحقيقة التى تضافرت قوى الشر والبغى على طمسها .. فأنقذوا بذلك شرف فرنسا وسمعة قضائها وعدالتها من الوحل الذى لطخهما به الخونة الأنذال .. !

واخيرا توجت الحكومة حكم المحكمة وقرار البرلمان بمنح دريفوس وسام فرقة الشرف — « الليجيون دونور » — تعويضا له عما قاسى ، ومكافأة له عما احتمل !

ثم أقام الجيش احتفالا مهيبا رد فيه للضباط البرىء رتبته العسكرية واعتباره الأدبى ..

وبذلك انتهى الطور الأخير من أطوار قضية دريفوس ، التى هزت الضمير العالمى وشغلت الأذهان والصحف نحو اثنى عشر عاما كاملة !!

والعاقبة للأطهار الابرار .. فى كل زمان ومكان !

A PRINCESS'S LIBEL ACTION
by
SIR PATRICK HASTINGS

اعترافات
قاتل راسبوتين !

القضية التى أماطت اللثام عن قصة مصرع الشيطان ..

قضية فريدة فى بابهــا ..

لعل المحاكم لم تشــهد فى تاريخها « شاهدا » تطوع بالاعتــراف بانه قاتل ـ وقاتل « متوحش » ، استخدم السم والرصاص والعصا معا للقضــاء على غريمه ! ـ اقول « تطوع » مختارا بهذا الاعتــراف ، دفاعا عن سمعته وسمعة زوجته .. فلم يؤخذ القاتل المعترف من منصة الشهادة إلى المشــنقة ، او حتى إلى السجن ، بل اقر القضاء ما رمى إليه من تبرئة شرفــه وشرف زوجته من كل ما يشين ! ..

هذا ما حدث فى القضية التى رفعتهــا ابنة أخت قيصر روسيا السابق على شركة « متروجولدوين ماير » السينمائية منـذ أعــوام عقب العــرض الأول لفيلم « راسبوتين » ، الذى اضطلع بدوره الأول الممثل القدير « ليونيل باريمور » ..

وهذه تفصيلات القضــية ننقلها بأمانة ، مع ما تضمنته من قصة « راسبوتين » وفضائحه ومصرعه ، عن كتاب للسير « باتريك هاستنجز » المحامى الذى أخذ يناصر المدعية فى هذه الدعوى التى اماطت اللثام رسميا ـ لأول مرة ـ عن قصــة مصرع شــيطان القيصرية الداعر !

نعم .. انا قتلته !

ـ أنا قتلته .. قدمت له فطائر مســمومة ، فأكلها .. ولكنه لم يمت .. فاضطررت إلى ان اطلق عليه الرصاص .. !

وكانت أنظار القاضى والمحلفين والجموع التى زخرت بها المحكمة ، عالقة بالرجل المشوق القامة ، الأنيق المظهر ، الذى صدرت عنه هذه العبارات .. ولكن قسمات وجهه لم تختلج مع ذلك أتفه اختلاج .. لا ولم تهتز جارحة فى جسده .. بل كان بادى الهدوء والثبــات .. حتى إذا فرغ من الإجابة عن الأسئلة التى وجهت إليه ، سار فى تؤدة .. لا إلى المشنقة .. ولا إلى الكرسى الكهربائى .. ولا إلى قفص الاتهام على الأقل .. وإنما إلى مقاعد الشهود ، ليرقب بقية المحاكمة ، وكأن عباراته لم تكن تحمل كل ما فى معــانى كلماتها من جريمــة ، وفظاعة ، وهول يبعث القشعريرة فى الأجســاد ... فلمــا انتهت المحاكمة ، غادر القاعة فى نفس الهدوء والثبات ! .. ليس هذا فحسب ، بل انه غادرها محوطا بمظاهر التــكريم والأجلال .. !

ومع ذلك ، فقــد تضمنت عبــاراته ما يميط اللثام عن جريمة من اكبر الجرائم فى التاريخ الحديث .. جــريمة اهتز لها بلاط امبراطورية كانت من اقوى الامبراطوريات واوسعها رقعة ونفوذا .. وسرى الاهتزاز من البلاط إلى الامبراطورية كلها ، ومن هذه إلى العالم بأسره .. !

الرجل الذى أوتى قوة سحرية !

كان ذلك حين رفعت الأميــرة « ايرينــا الكسندروفنا

يوسوبوف » دعوى ضد شركة « متروجولدوين ماير » تتهمها بالقذف والتشهير بها فى «الفيلم» السينمائى الذى اخرجته قبيل الحرب الأخيرة عن «راسبوتين» ، الشخصية الغريبة الرهيبة، التى خلعت عليها الأقدار قوة سحرية غامضة ، مكنتها يوما من ان تسيطر على مقاليد الأمور فى البلاط القيصرى الروسى .. بل على مصائر الامبراطورية الروسية بأسرها .. !

ولقد قيل إن « راسبوتين » كان راهبا .. ولكن الواقع ان احدا من المؤرخين لم يستطع أن يجزم بشىء عن اصله ، إذ كان منبته ونشأته محوطين بأستار كثيفة من الغموض ! كل ما يعرف عنه فى هذا الصدد انه ولد فى قرية « بوكروفسكو » بسيبريا ، باسم «جريجورى افيموفتش » .. وكان فى شبابه الباكر يسرق الجياد من البرارى ويبيعها ، وهى مهنة كان اهل سيبيريا يعتبرونها احط ما ينسب إلى كائن بشرى ! .. واثناء تجواله اتصل برهبان احد الأديرة ، وكانوا من المتصوفين ، **فأخذ منهم بعض قشور نزعتهم هذه** التى لم تلبث ان انقلبت عنده إلى مجون جنسى ودعارة سافرة . !

ولم يستطع أحد ان يحدد ملابسات انتقاله من حياة التشرد والتجوال هذه إلى حياة الاستقرار فى العاصمة « موسكو » .. فقد برز فيها فجاة ، واستطاع ان ينفذ إلى بلاط القيصر فى سنة ١٩٠٧ .. وسرعان ما صار محور آراء متناقضة ، متضاربة : إذ راى فيه البعض قديسا راحوا يبالغون فى اجلاله واكباره حتى **كادوا يجعلون منه إلها !** .. بينما اعتبره البعض الآخر وغدا افاقا ، وشريرا خطرا .. ! وكان مظهره قذى للعيون : بادى القذارة ، اشعث ،

اغبر ، ذا طباع منفرة تثير النفوس .. وكان رغم المظهر الدينى **الذى انتحله ، سكيرا يغرق** فى الخمر إلى حد الابتذال .. ومع ذلك ، فقد كان يزعم انه أوتى قوة خفية فذة تمكنه من أن يشفى أى مرض ، مهما استعصى داؤه .. واستطاع بتأثير سحرى طاغ أن يسيطر على عقول الكثيرين فيقنعهم بذلك !

يتسلل إلى بلاط الامبراطور

وكانما كانت الأقدار فى خدمته ، فمهدت له الفرصة المناسبة للظهور فى بلاط **« سانت بيترسبورج » — بلاط قيصر** روسيا — فقد اشتدت بابن القيصر (ولى العهد) علة استفحلت حتى اعيت الأطباء ، الذين استدعوا خصيصا من كافة ارجاء أوربا ، فعجزوا جميعا عن كشف كنهها ، وبالتالى عن علاجها .. **وبرح الداء بالأمير الصغير حتى اوشك ان يورده حتفه ..**

وفى اللحظة التى استبد فيها اليأس بالأطباء فسلموا بعجزهم ، قصت إحدى الوصيفات على القيصرة — ام الصبى — ما شاع عن القوة الخارقة الغريبة التى اوتيها «راسبوتين» ، وما كان ذلك الراهب الغامض يذيعه فى كل مكان بشأن قدرته على التغلب على كل داء ، بحيث لا تستعصى علة ما على سلطانه !

وفى غمرة اساها وحزنها اليائس المفجع ، كانت القيصرة الوالهة كالغريق ينشد قشة يتشبث بها فسرعان ما استدعى **« راسبوتين » إلى القصر ، واقتيد إلى مخدع ولى العهد ..!**

ولم يدر احد ماذا فعل « راسبوتين » ، ولكن الذى لمسه

الجميع ان صحة الأمير الصغير بدأت فى التحسن بمجرد ولوج « راسبوتين » مخدعه ! .. ولم تلبث حتى انجابت عن الصبى آلامه ، وانقشعت غيوم الخطر ، ثم خفت العلة رويدا حتى تلاشت ! .. فاستطاع « راسبوتين » أن يزعم بملء فمه أن مقدرته السحرية قد أنقذت ولى عهد الامبراطورية من موت محقق .. !

وكان طبيعيا أن لا يقف عرفان القيصر والقيصرة لفضل « راسبوتين » عند حد ، فلم يضنا عليه بعطاء مهما غلت قيمته ولم يبخلا عليه بمكانة مهما سمت ذروتها ! .. وهكذا قفز «راسبوتين» فى يوم وليلة ، من دجال مشرد فى طرقات المدينة ، إلى مرتبة الصفى الأثير عند سيد الامبراطورية وسيدتها ! .. ولو أن الخبيث كان يومئذ يطمع فى مال أو جاه ، لهان الأمر .. ولكنه كان يطمع فيما هو أعظم وأخطر : فى النفوذ ، والسيطرة ، والسلطان ! ووجد فى القيصر الذى كانت تضنيه المتاعب ، وفى القيصرة التى كانت تسرف فى الشعور بأنها مدينة له بحياة ابنها .. وجد فيهما الأداتين اللتين يتذرع بهما لتحقيق أطماعه .. !

وكانتا أداتين لينتين مطواعتين ، فان هى إلا أشهر قلائل حتى غدا « راسبوتين » الحاكم الفعلى لروسيا بأسرها : صارت اقتراحاته أوامر ، ومشورته للقيصر رغبة لا ترد ! .. أو على حد القول الذى شاع فى روسيا يومئذ : « كان القيصر يحكم روسيا ، والقيصرة تحكم القيصر ، وراسبوتين يحكم الاثنين ! » .. ومن هنا راح صاحبنا يخفض ويرفع ، يعزل ويولى ، يذل ويعز .. حتى لم يعد فى روسيا كبير أو صغير ،

قائد أو سياسى ، يحس اطمئنانا أو سكينة نفس بازاء أفاعيل الساحر الرهيب .. الذى لم يغيره ما نال من حظوة وسيادة ، فظل على ما كان عليه : سكيرا ، قذر الهيئة ، أشعث المنظر .. !

القاتل الذى أنقذه الرأى العام !

وكان محتوما أن يثير كل هذا كراهية القوم لراسبوتين ، داخل القصر الامبراطورى وخارجه .. كراهية يذكى أوارها الخوف ! ويؤجج سعيرها ما أشيع من أن هذا الشيطان الذى تقمص فى مسوح راهب ، لم يكن سوى جاسوس ألمانى . يسعى إلى الغدر بروسيا .. وإلى خلع القيصر واعتلاء مكانه .. فكانت أن ثارت النعرة القومية فى الصدور ، وراحت تزيد النار اشتعالا ..

لكن أحدا لم يكن يجرؤ مع ذلك على أن يمد يده إلى « الشيطان » بسوء ، فقد كان الجميع يرهبونه ، كانت الأحداث قد أظهرت أن السم لا يؤثر فى أحشائه ، وأن الرصاص لا ينفذ فى جسمه ! .. وكان الاعتقاد السائد أن الرجل محوط بهالة مغناطيسية سحرية تصد عنه السوء ، وتحميه من كل شر أو ضر !

شخص واحد استطاع أن ينتزع نفسه من غمرة هذه الرهبة وذاك الخوف ، ويستهين بالقوة السحرية المنسوبة إلى « راسبوتين » ، فآلى على نفسه أن يقتله .. وقتله !

ولكن الكراهية التى كانت تملأ صدور الشعب الروسى بأسره ضد «راسبوتين» ، والمكانة التى كانت لقاتله ، والمحتد

النبيل الذى كان ينتسب إليه هذا القاتل ، استطاعت أن تجتمع لانقاذه من بطش القيصر ، فاكتفى بأن أقصاه وزوجه عن البلاط ، وأمرهما بأن يلزما ضيعة من أملاكهما فى بقعة نائية من روسيا لا يبرحاها ..

وظلا فى « معتقلهما » هذا حتى شبت نار الثورة فى روسيا ، فعمدا إلى الفرار .. وراحا يهيمان على وجهيهما فى أرجاء أوربا ، حتى استقر بهما المقام فى إحدى عواصمها ، يعيشان مجردين من كل ما كان لهما من ثراء ، وجاه ، ومكانة !

مصرع « راسبوتين » على الستار الفضى

ومرت السنون .. وقتل القيصر وأفراد أسرته .. ومات كل من كان لهم نصيب فى المأساة ، أو دراية بحقيقتها ..

وتتابعت الأعوام .. وبعدت شقة الزمن ..

ثم خطر لشركة « متروجولدوين ماير » الأمريكية ، أن تتخذ من مأساة « راسبوتين » موضوعا لفيلم تثير به مشاعر الناس ، وتكسب به نصرا فنيا وماديا .. وحرصت على أن تأتى قصة الفيلم أقرب ما تكون إلى الحقيقة — إن لم تكن هى الحقيقة بحذافيرها — فمثلت فيه شخصيات القيصر ، والقيصرة ، وابنهما ، والراهب الشيطان (وكانوا جميعا قد فارقوا الحياة ، فلم يك ثمة ما تخشاه الشركة فى شأنهم من اعتراض أو احتجاج ، أيا كان مصدرهما) .

ولكن بقيت شخصيتا القاتل وزوجته . وكان أمرهما مشكلة عويصة راحت الشركة تتوسل إلى حلها بشتى الحيل — إذ كانا لا يزالان على قيد الحياة ! — فانتهى الأمر بها إلى

ابتكار شخصيتين خياليتين : شخصية الامير « تشيكودييف » ، الذى زعمت الشركة أنه قاتل « راسبوتين » ! .. وشخصية أميرة زعمت أنها كانت خطيبته ثم تزوجت منه بعد الجريمة ! .. وزيادة فى حبك القصة ، وهز مشاعر رواد السينما ، حرفت الشركة حقيقة بعض الوقائع ، فادعت أن « راسبوتين » تسلط على إرادة الأميرة المذكورة بقوته السحرية الخارقة ، واعتدى على عفافها ! .. وجعلت من هذه الواقعة الخيالية المكذوبة نقطة هامة من النقط التى ترتكز عليها عقدة القصة ..

الاميرة تتهم ..

وقوبل « الفيلم » فى العالم كله باهتمام وضجة وأعجاب .. إلا من شخصين: الاميرة « ايرينا الكسندروفنا » ، وزوجها الامير يوسوبوف .. اللاجئين الروسيين اللذين كانا يقيمان وتتنتذ فى لندن ..

وسرعان ما رفعت الأميرة دعوى أمام القضاء ضد شركة « متروجولدوين ماير » تتهمها فيها بالتشهير بها ، فقد كان زوجها الامير « فليكس يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » الذى مثلته الشركة فى شخصية « تشيكودييف » .. وبالتالى: كانت هى الأميرة التى مثلت فى شخصية «خطيبة» تشيكودييف .. ومن ثم فان واقعة الاعتداء على عفاف تلك الخطيبة كانت كفيلة بأن تسىء إلى سمعة الاميرة ، وتحرج مركزها بين عارفيها ، وتنال من قدرها فى أعينهم ومن تقديرهم واحترامهم لها .. !

وانكرت الشركة ما عزى اليها ، ودفعت بأن الشخصيتين اللتين أظهرتهما على الستار الفضى هما من خلق الخيال ، وانهما بعيدتان كل البعد فى الملامح والأوصاف والخلال عن الأميرة « يوسوبوف » وزوجها .. فضلا عن ان الأميرة التى ظهرت على الستار كانت خطيبة للأمير القاتل ، فى حين ان « ايرينا الكسندروفنا » كانت متزوجة من الأمير «يوسوبوف» عند ما اغتيل « راسبوتين » ..

وكانت النقطة الوحيدة التى راى محامى الأميرة « سيرباتريك هيستنجز » — مؤلف هذا الكتاب وراوى القصة — انها تصلح لأن يستند إليها فى تعزيز دعواه ، هى أنه ما دام « يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » ، وما دامت الشركة قد اعلنت واكدت ان قصة فيلمها مأخوذة عن الحقيقة التى وقعت فعلا ، فلا بد أن يكون المقصود من شخصية الأمير « تشيكوديف » أن تكون صورة خيالية ليوسوبوف .. ومن ثم فالأمير الخيالية فى الفيلم ، تمثل زوجته الأميرة « ايرينا » ..

فى ساحة القضاء ..

لكن القضاء لا يقتنع بالمنطق ، ما لم تدعمه القرائن والأدلة القاطعة .. وكانت القرائن والأدلة كلها تتجمع فى نقطة واحدة ، لا بد من الوصول إليها : هى الحصول على الاعتراف من الشركة بأن الأمير « يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين »!

ولكن محامى الاميرة لم يرتقب من الشركة اعترافا كهذا! يقضى على حججها ودفاعها ، ومن ثم فقد كان عليه أن يقنع القضاء بأن « يوسوبوف » هو القاتل ! .. ولم يكن أمامه من

سبيل إلى ذلك غير تقديم الأمير إلى المحكمة كشاهد ، كى يدلى بالدور الذى لعبه فى المأساة .. ويعترف علنا امام المحكمة بانه .. قاتل !

ورسم « هاستنجز » خطته فى « تاكتيك » بارع ..

وحان يوم نظر القضية .. فحفلت المحكمة بالرواد الذين جذبتهم إلى قاعتها ، سواء ممن عرفوا شخصى الأميرة وزوجها ، أو ممن عرفوا القصة والموا بالتاريخ ..

وكان الجو — داخل القاعة — مشحونا بتيارات من كهرباء العواطف ، والمشاعر ، والانفعالات .. والكل فى فضول ، ولهفة ، وترقب ، وتحفز .. وفى مقدمتهم جميعا : محامى الأميرة !

اثنان فقط ظلا محتفظين بهدوئهما ورزانتهما ورباطة جاشهما ، فجلسا رافعين رأسيهما فى نبل وجلال .. وهما : الأمير « يوسوبوف » ، وزوجته الأميرة « ايرينا » .. صاحبة الدعوى !

الأميرة تدافع عن شرفها ..

وكان محامى الأميرة المدعية قد احكم « تاكتيكه » على اساس أن تستدعى الاميرة للادلاء باقوالها قبل ان تمضى المحاكمة فى طريقها شوطا طويلا ، فقد كان يعتمد على شخصيتها فى انتزاع « عطف » الجمهور والمحلفين .. !

وتقدمت الأميرة فى خطى متئدة ، ثابتة ، متزنة ، فاتخذت موقفها فوق المنصة ..

وعندما سئلت عن اسـمها ، رفعت راسـها فى كبرياء غريزى ، تقول :

ــ « ايرينا الكسندروفنا يوسوبوف » .. صاحبة السمو الملكى ، وإحدى اميرات الأسرة الامبراطورية الروسـية .. وابنة اخت قيصر روسيا السابق .. وزوجة الأمير « فليكس يوسوبوف » منذ سنة ١٩١٤ ..

ثم انطلقت تشرح قضيتها فى نبرات هادئة ، ولفظ واضح ، واخراج دقيق للكلمات ..

واطمأن محاميها وهو يراها قد غلبت الموقف فلم تتـأثر بالانفعالات التى يثيرها ، او تحفل بما راحت هيئة الدفاع عن الشركة تحاول أن تحرجها به من اسئلة .. ولا اهتزت لما بذلت الهيئة من مناورات لاستثارتها .. او فترت همتها بفعل ما دبر ضدها من حيل لاستدراجها إلى الفخاخ التى أعدت لها .. بل إنها افلحت فى أن لا تغضب حتى لكرامتها حين حاول ممثـل الخصوم أن يظهرها بمظهـر الطامعة فى امـوال الشركة ، لا الثائرة لسمعتها وشرفها .. !

وهكذا مضت الأميرة تروى قصتها : إنها زوجة الأمـير « يوسوبوف » ، و « يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » .. هو الشخصية الحقيقية لتشيكوديف بطل قصة « الفليم » .. وما غرر بها « راسبوتين » ، ولا اغتصـبها ، ولا نال قلامة ظفر من شرفها او عفافها .. ومع ذلك فقـد جاءت الشركة فاظهرتها فى الفيلم فى مظهر كفيل بان يؤثر على احترام الناس لها ، لا سيما وان معارفها جميعا يعلمون ان زوجها هو قاتل

الراهب الشيطان .. ولا سيما وان الشركة زعمت فى دعايتها أن كل وقائع الفيلم مأخوذة عن الواقع !

القاتل يعترف والخصم يعارض !

واستطاعت الاميرة ان تحرك عواطف الجمهور ، وان تستأثر بانتباه وعطف هيئة المحـكمة والمحلفين والحضـور جميعا !

ولكن هذا لم يكن يكفى لاقناع القضاء .. لا بل ولم يكن ينطوى على اى دليل قوى يثبت شخصية قاتل «راسبوتين» ! .. وهنا ، نهض « باتريك هاستنجز » فسأل محامى الشركة :

ــ هل يعتقد الموكلون عن الشركة المدعى عليها ان ثمة خـلافا فى ان مصرع « راسـبوتين » تم عـلى يـد الأمـير « يوسوبوف » ؟ ..

وكانت تلك هى ذروة «التاكتيك» الذى أعده «هاستنجز» ورسم كل نقطة فيه بعناية وبراعة ..

وامسك الحضور بأنفاسهم .. وسقط محامو الشركة فى الفخ الذى أعـد لهم ، فلم يتردد المتكلم باسمهم فى أن يجيب بقوله :

ــ اننا نرتاب كل الريب فى ذلك ..

وكانوا يتوقعون أن يحرج جوابهم « هاستنجز » ، إذ من اين له الدليل المقنع ؟ .. لم يكن ثمة دليل سـوى شخص الأمير «يوسوبوف» ، واعترافه .. ولكن ، هل يجرؤ المحامى

على احــراج زوج موكلته ؟ .. وهل يقبل الأمير ويجرؤ على الاعتراف فى ساحة القضاء بجريمة قتل ارتكبها ؟ ..

ولكن « هاستنجز » لم ير بأسا فى أن يستأذن المحـكمة فى سماع شهادة الأمير « يوسوبوف » ! .. ولم يتردد الأمير بدوره فى اقتحام الموقف ، فسار فى خطى رزينـة وقورة إلى منصة الشهود .. وهنـاك وقف منتصب القـامة ، رافـع الرأس ، رابط الجاش ..

مال ، وجمال ، وجاه ..

وتحدث عن أصله ...

كان سليل آخر اباطرة « التتر » ، ووريث مجـدهم .. فلقد حدث عندما اجتاحت جحافل الروس اراضـيهم ومحت ملكهم ، ان أشفق « ايفـان الرهيب » على ابن الامبراطور الذى استشهد وهو يذود عن حيـاض ملكه ، فتبناه وكفله ورعاه .. ولعله كان يرمى بذلك إلى استرضـاء القبائـل « التترية » وكسب ودها ..

ونشأ الأمير ــ الذى اتخذ لنفسه اسم « يوسوبوف » ــ فى رعاية « ايفان الرهيب » ، الذى رباه كما لو كان ابنا له .. حتى إذا أوشك « الأب » ان يقضى نحبه ، اقطعـه مساحات شاسعة من الأرض ، قيل إنها كانت تفوق كل حصر ..

وفى أوائل العقد الثانى من القرن العشرين ، كان الأمير « فليكس يوسوبوف » ــ الذى مثل فوق منصة الشـهود فى قضيتنا هذه ــ هـو الوريث الأوحـد لأسرة الأمـير التترى المتبنى ، فآلت إليه ثروة الأسرة الطائلة باكملها ..

وكان يوسوبوف شـابا موفـور الفتـوة ، جميل الخلق والخلقة ، جذابا ، لبقا .. تكاد ثروته تفـوق كل خيال ، فلم يكن للمال عنده حساب ، ولم تكن ثمة رغبة يعز عليه منالها ..

وفى سنة ١٩١٤ ، تزوج الأمير من الأمـيرة « ايرينـا الكسندروفنا » ــ ابنة اخت القيصر ــ وكانت ابرز زهرات البلاط القيصرى ، وافتنهن جمالا .. فعاشا فى قصر « مويكا » عيشة كان الكل يغبطونهما عليها ..

كان قتله « واجبا » على !

وانتقل الأمير الشاهـد بعد ذلك إلى سرد قصـته مع « راسبوتين » : كان هــو فى مقدمة من هالهم استفحال نفوذ ذلك الأفاق الداعر .. وكان يكره فيه سـيطرته على القيصر ــ ومن ثم على الامبراطورية الشاسعة ! ــ ويزدريه لاغراقه فى معاقرة الخمر ، ولمـا شاع عنه من مباذل جنسية ومجون وفضائح .. !

وعندما قويت الريب فى أن « راسبوتين » كان جاسوسا المانيا ، يسعى لتقويض عرش القيصر وسلطانه ، لم يستطع الامير « يوسوبوف » أن يكظم جماح سخطه .. وهبت النوازع الوطنية تزيد نيران الحقد اتقادا .. غاظـه ان الكل كانـوا يرهبون الساحر الدجال ، فآلى على نفسه أن يخلص الوطن من شروره وآثامه ..

وارتفع صـوت الأمير فى قاعة المحـكمة يقـول دون ان يفارقه هدوؤه العجيب :

— وقتلت « راسبوتين » .. كان واجبى يقتضينى أن اقتله .. فقتلته !

ومضى يروى كيف أتم غايته :

كان يعرف أن اغتيال « راسبوتين » ليس بالمهمة السهلة .. فقد كان الاعتقاد يسود الأذهان بأن السموم لا تنال من الرجل .. وأن الرصاص لا يصيبه بأذى .. وكانت شعوذته قد أوقرت فى النفس أنه فوق متناول الموت ! ..

ولكن « يوسوبوف » لم يشأ أن يستسلم للقنوط ، ورأى أن يحشد لتنفيذ « رسالته » كل الوسائل .. فاجتمع مع نفر من الشباب الذين كانوا يشغلون أسمى مناصب البلاط ، فأخذوا يرسمون خطتهم فى حذر ، وحرص ، ودقة .. حتى اتفق رأيهم على دعوة « راسبوتين » إلى قصر « مويكا » ، ولم تكن السبيل إلى الدعوة مستعصية ، بل كان يكفى أن يعلم الرجل أن الخمر موفورة بلا حساب ، وأن الأطعمة الشهية قد اعدت فى فيض وجود ، كى يستجيب للدعوة .. !

وكانت أول خطوة فى المؤامرة دس « السموم » فى الخمور والأطعمة التى أعدت للمأدبة الرهيبة ! .. وكأنما خشى المتآمرون أن لا تقوى تلك السموم على أحشاء الداهية ذى القوة الغامضة ، فأعدوا عددا من المسدسات المحشوة ، ليصبوا الموت منها عليه إذا اخفقت السموم .. !

لا يؤثر فيه السم !

وعندما وصل « راسبوتين » إلى قصر « مويكا » فى الليلة الموعودة ، استقبل فى حفاوة بالغة ، وتكريم عظيم .. وراحت

الموسيقى تصدح فى جنبات القصر ، فتوحى إليه بما أعد من متع ولهو لارضائه ، وتبعث فى الوقت ذاته من الألحان مايطغى على اى ضجيج قد يصاحب تنفيذ الخطة ، حتى لا يدرى أحد خارج القصر بما يدور فى داخله .. !

ومبالغة فى اكرام « راسبوتين » ، اقتاده سيد القصر — الأمير « يوسوبوف » — إلى غرفة فى الطابق الأسفل ، أعدت بها مائدة خاصة كى ينفرد وحده بلذائذ ما حوت ، قبل أن يجتمع مع بقية المدعوين المزعومين حول المائدة الرئيسية !

واسرف الامير فى تقديم الفطائر والخمر إلى ضيفه .. وكان السم يخالط كل شىء ، وفى كميات تكفى لصرع عشرة رجال ! .. وأخذ الأمير يرقب غريمه فى قلق .. وكم كانت دهشته وهلعه حين تبين أن السموم لم تصبه بأى سوء !!

وعندئذ تسلل « يوسوبوف » من الغرفة ، إلى حيث حصل من احد زملائه على مسدس معد ، وقفل راجعا .. وشد ما كان ارتياعه إذ راى « راسبوتين » لا يزال جالسا إلى المائدة .. ياكل ! دون أن يبدو عليه حتى أدنى « توعك » .. وكأن السم قد تحول فى أحشائه إلى دسم !

واندفع الأمير يطلق الرصاص تباعا على الرجل الرهيب .. وإذ ذاك فقط ، تحرك الرجل ، فنهض من مكانه ، وانطلق يدور فى جنبات الغرفة مهتاجا ، يهاجم الأمير ، ويتخبط .. وقد انبعث منه خوار كخوار الثور .. والرصاص ينهمر عليه دون توقف !

وانهارت قواه أخيرا ، فهوى إلى الأرض متهالكا .. ولم يصدق الأمير « يوسوبوف » عينيه ! .. ولكى يضمن الإجهاز عليه تناول عصا ثقيلة وراح ينهال عليه بها .. وخف زملاؤه إلى معونته ، حتى هشم راس « راسبوتين » وعظامه .. !

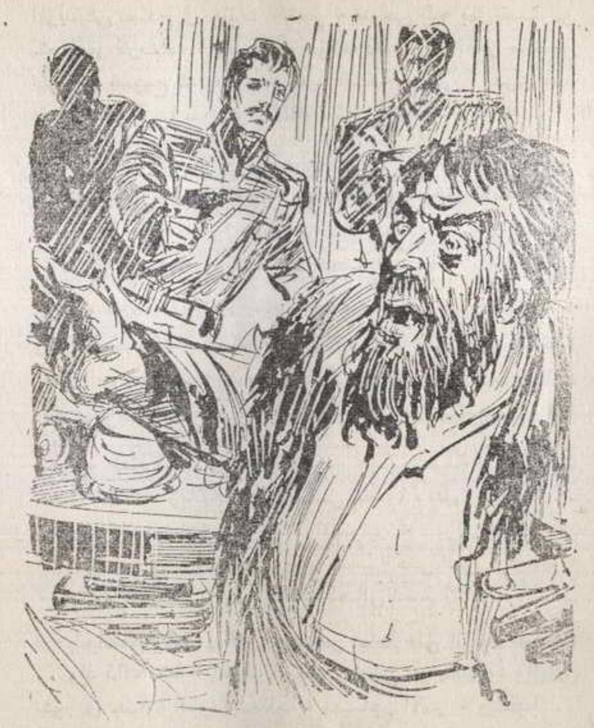
وإذ اطمأن المتآمرون إلى أن غريمهم الرهيب قد مات حقا، عمدوا إلى جثمانه فحملوه إلى حيث القوا به فى النهر ، الذى كان ماؤه يتجمد سريعا فى تلك الآونة ، فيتحول من شدة البرد إلى جليد .. !

مناورة فى المحكمة ..

وكانت قصة الأمير « يوسوبوف » والهدوء الذى تولاه وهو يسردها على هيئة المحكمة فى لهجة واضحة ، وأداء متزن ، كفيلة بأن تكسب إعجاب الجمهور وعطفه .. !

ولكن محامى شركة « مترو »أبوا أن يسلموا بسهولة ، بل راوا من واجبهم أن يجرحوا القصة ويستثيروا الشك فى صدقها ، ولو اقتضاهم الإمعان فى الحملة أن يحاولوا التشكيك فى كون الأمير هو القاتل الحقيقى لراسبوتين ! .. بل إنهم ذاهبوا إلى ابعد من ذلك ، فزعموا أن القاتل إنما كان واحدا من أصدقاء « يوسوبوف » ، وكان قريب الشبه من البطل الذى أظهرته الشركة فى « الفيلم » وخلعت عليه اسم الأمير « تشيكودييف » !

ثم عمدوا فى الوقت ذاته إلى مناورة أخرى بارعة .. كانوا يدركون أن الراى العام الإنجليزى يكره الإجرام والعنف،



واندفع الأمير يطلق الرصاص تباعا على الرجل الرهيب .. وإذ ذاك فقط ، تحرك الرجل ، فنهض من مكانه ، وانطلق يدور فى جنبات الغرفة ..

ولو فى سبيل التخلص من شخصية خطرة كراسبوتين .. وان المحلفين خليقون بأن يستبشعوا الإمعان فى التنكيل بالقتيل إلى درجة استخدام السم والرصاص والعصا الثقيلة فى آن واحد ! .. ومن ثم حرصوا على ان يكثروا من سؤال الشاهد ومحاورته ، ليضطروه إلى الاسهاب فى وصف بشاعة جريمته!

اللحظات الأخيرة لراسبوتين ..

وبدأ مجلس الدفاع مناورته بسؤال الشاهد :

— إذن فانت تريد ان تؤكد انك قتلت «راسبوتين» ؟ ..

وفى نفس الهدوء الجليل الوقور ، قال « يوسوبوف » :

— اجل .. قتلته .. رايت من واجبى نحو وطنى ان اقتله .. فقتلته !

— أو حقا تريدنا على ان نفهم انك قدمت له فطائر نقعت فى السم ، و .. انه اكلها ؟

— نعم ، قدمت له فطائر مسمومة .. واكلها .. لكنه لم يمت ! ومن ثم اضطررت إلى ان اطلق عليه الرصاص ..

— ولكن بعض المصادر التاريخية تقول إن الذى اطلق النار احد زملائك .. لا انت !

— بل انا .. فانى حين وجدته يابى ان يموت ، غادرت الغرفة ، واخذت مسدس زميلى ، ثم عدت فاطلقت النار على « راسبوتين » .. ورميته بكثير من الطلقات .. ومع ذلك فقد ظل صامدا لا يموت .. بل هاج وراح يخور كالثور .. وإذ

ذاك انهلت عليه بعصا ثقيلة غليظة حتى قضيت عليه .. ثم حملنا جثته والقيناها فى النهر ! » .

وقد تكون القصة روعت كل من انصت لها .. وربما كان القوم قد استبشعوا ما فيها من قسوة عنيفة ، ولكن احدا لم يشك قط فى صدق كل كلمة قالها « الشاهد » .. وكان يقف ممشوق القامة كالسيف المرهف ، جامدا لا تهتز جارحة فى جسده .. ومضى يقول فى هدوء وثبات :

— لم يسبق لى أن قتلت إنسانا .. ولكن واجبى كان يقتضينى أن اقتل « راسبوتين » .. وقد قتلته ! ..

بين ابطال الحقيقة وابطال السينما

وعاد الدفاع يركز همه فى محاولة اثبات بعد الفارق بين شخصية الأمير « تشيكوديف » الذى قتل « راسبوتين » فى القصة السينمائية ، وشخصية الأمير « يوسوبوف » الذى قتله فى الحياة الواقعية .. وكما ضيق الدفاع الخناق على الأميرة « ايرينا الكسندروفنا » حتى حملها على الاقرار بأن الأميرة التى ظهرت فى الفيلم لم تكن تشبهها شكلا ولا خلقا ، راح يعمل جاهدا حتى حصل من الامير « يوسوبوف » على اقرار بأن « تشيكوديف » لم يكن كذلك يشبهه شكلا ولا خلقا ! .. وظن الدفاع انه بذلك قد حطم اسس الدعوى ، وما درى انه إنما كان يخدم الخطة التى رسمها محامى الأميرة .. فإن محامى الشركة عجزوا عن ان يوهنوا اعتراف « يوسوبوف » أو يشككوا فيه ، وبالتالى فقد ثبت أن « تشيكوديف » وخطيئته

كانا يمثلان الأمير وزوجته ، رغم الفوارق الشكلية والشخصية .. ومن ثم كان كل ما يشين البطلة الخيالية ، كفيل بان يشوه سمعة الاميرة الحقيقية .. !

واخيرا ، دعى المحلفون إلى مشاهدة « الفيلم » فى عرض خاص .. وكان خليقا بممثلى الدفاع عن الشركة أن ينتهوا بالمسالة عند هذا الحد ، ولكنهم على العكس عادوا يحاولون أن يؤكدوا فى اذهان المحلفين بعد الشبه الشكلى بين الأمير « يوسوبوف » والشخصية الخيالية « تشيكودييف » .. ومرة اخرى ، خدموا خطة محامى الأميرة دون أن يشعروا .. فقد اضطروا إلى استدعاء شهود بينهم عدد ممن عرفوا الأمير « يوسوبوف » وزوجته ايام مجدهما ، وممن كانوا على علم ودراية ببلاط قيصر روسيا ..

السلاح الذى قدمه الدفاع لخصمه !

واكد الشهود ان شخصيتى القاتل وخطيبته فى «الفيلم» لا تشبهان فى شىء شخصيتى الأمير وزوجته .. ولم يحاول محامى الاميرة ان يطعن فى شهادة اى من هؤلاء الشهود ، ولكنه كان يقتصر على الاصرار على انتزاع جواب من كل شاهد ، على سؤال واحد راح يوجهه إلى كل منهم عقب الشهادة :

— من الشخص الذى عرف فى كل مكان بانه قاتل « راسبوتين » ؟ ..

— الأمير يوسوبوف ..

« إذن ، فكل شخص عادى يشهد « الفيلم » الذى اذيع

انه اخذ عن الحقيقة ، وانه صورة صادقة لمصرع «راسبوتين» ، خليق بأن يشعر إذ يرى البطل القاتل ، بأنه إنما يرى فى الواقع الأمير « يوسوبوف » ! .. وأن السيدة الوحيدة التى كانت يوما خطيبة للأمير ، ثم زوجة له ، ليست سوى صاحبة الدعوى ؟ »

ولم يكن ثمة مفر من الاقرار بصحة هذا التأويل ..

فى اللحظات السابقة للحكم ..

ومرة اخرى ، طلب المحلفون أن يشهدوا « الفيلم » ، فأعد لهم عرض خاص .. وعندما عادت المحكمة إلى الانعقاد ، لخص لهم القاضى الوقائع والتطبيق القانونى للقضية ، ثم رفعت الجلسة ، ريثما يتداول المحلفون ..

وساد قاعة المحكمة جو القلق ، والترقب .. واشتد الفضول إلى معرفة النتيجة ، حتى تحول إلى لهفة منفعلة مشبوبة .. !

ويقول « باتريك هاستنجز » فى هذا الصدد :

« قط لم يسبق لى طيلة السنين التى مارست فيها مهنتى ان شعرت خلال فترة تداول المحلفين بمثل القلق الذى اعترانى فى هذه القضية .. فمع ان النتيجة قد لا تعنينى كثيرا — كمحام — إلا أنها كانت بالنسبة لطرفى الخصومة منطوية على لحظة قد تكون أهم لحظات حياتيهما ، فلم يكن ثمة بد من ان يسرى القلق إلى نفسى .. بل إنه كان فى هذه المرة أكثر من قلق طبيعى .. كان الحكم ينطوى على اهمية كبيرة للأميرة ، فلقد

اضطرت إلى ان تكشف امام الملأ عن أقسى فترة فى حياتهـــا ، فكان خسران القضية فوق احتمالها .. ومع أن سؤال الشهود ومحاورتهم قد أبرأ سمعتها ، إلا أن الحكم إذا صـــدر فى غير مصلحتها كان كفيلا بأن يقضى على تلك السمعة !

« ولم اتمالك فى غمرة الهمس والحدس اللذين ســـاد الحضور ، أن اسائل نفسى فى عجب : ترى ما الذى كان يدور بخلد الأميرة فى تلك الفترة وهى جالسة فى صمت وسكون ؟ .. لقد كانت فى تلك الأيام التى حدثتنا عنها فى القضـــية ، اميرة يغبطها الجميع ، تقيم فى قصر فى مدينة البلاط الملكى — « سانت بيترسبورج » — وقد آثرها الحظ بكل شىء .. أما الآن ، فلم تكن أكثر من لاجئة فى بلد اجنبى ، بلا ثروة ، ولا أمل فى العودة إلى الوطن الذى اغتربت عنه .. » .

٢٥٫٠٠٠ جنيه .. للأميرة

وعاد المحلفون إلى قاعة المحــكمة .. واقبـــل فى اثرهم القـــاضى ..

وساد القاعة صمت شامل ، رهيب .. وعلقت أبصار الجميع — فيما عدا الأميرة وزوجها اللذين ظلا جـــامدين فى مكانيهما — باعضاء هيئة المحكمة ..

وسأل القاضى المحلفين عما انتهى إليه رأيهم ، فأعانوا انهم اجمعوا على أن الأميرة جديرة بالإنصاف ..

ومن ثم قضى القـــاضى على الشركة بأن تدفع خمســـة وعشرين الف جنيه تعويضا للأميرة !

ولأول مرة ، تخلت الأميرة عن جمودهـــا ، إذ تحولت تشكر لمحاميها ما قدم لها من عون ..

ثم خرجت الأميرة وزوجها من المحكمة وهما محتفظـــان بالهدوء والسكينة والوقار الذى وفدا عليها به .. ولكنهما كانا قد أبرآ سمعتهما ، وفازا بثروة !

اما الشركة فقد حاولت ان تستأنف الحكم بعـــد ذلك ، ولكن طلبها قوبل بالرفض .. !

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع

١ ــ مؤامـرة لاغتيـال رمسيس الثـالث : عن الهيروغليفية ٣

٢ ــ محاكمة سقراط ، الفيلسوف الـذى دافع عن الحق حتى النفس الأخير ٢١

٣ ــ العدالة فى أثينا القديمة (عندما يقتـل الزوج عشيق زوجته !) ٤٣

٤ ــ محاكمة الملكة « آن بولين » (أبشع جرائم الملك السفاح هنرى الثامن) ٦٩

٥ ــ محاكمة سير والتر رالى ٨١

٦ ــ محاكمة الملك تشارلس الأول ٩٩

٧ ــ محاكمة الملك لويس السـادس عشر ١١٩

٨ ــ محاكمة دريفوس ١٣٧

٩ ــ محاكمة قاتل راسـبوتين ١٦٧



عزيزى القارئ ..

الكتاب الذى بين يديك هو الجزء الأول من سلسة (المحاكمات الكبرى فى التاريخ القديم والحديث) . ويضم هذا الجزء الأول المحاكمات التسع التالية : مؤامرة لاغتيال ملك مصر القديمة (رمسيس الثالث) (مترجمة عن الهيروغليفية) ـ محاكمة سقراط ، الفيلسوف الذى دافع عن الحق حتى النفس الأخير ـ العدالة فى أثينا القديمة (محاكمة الزوج قاتل عشيق زوجته !) ـ محاكمة ملكة انجلترا (آن بولين) (أبشع جرائم الملك السفاح زير النساء هنرى الثامن !) ـ محاكمة سير والتر رالى ـ محاكمة وإعدام ملك انجلترا تشارلس الأول ـ محاكمة وإعدام ملك فرنسا لويس السادس عشر ـ محاكمة الضابط الفرنسى (دريفوس) ـ محاكمة الأمير الروسى يوسوبوف قاتل الأفاق (راسبوتين) ، الذى سيطر على بلاط قيصر وقيصرة روسيا !



وفى الجزء الثانى من هذه السلسلة تطالع فى الكتاب القادم ـ بإذن الله ـ مجموعة أخرى من أشهر المحاكمات ال[illegible] الكبرى .

حلمي مراد

قرش جنيه